أسد الأشقر

من صميم لبنان

١٩٤٦

IMPRIMERIE
ATELIER DE RELIURE
FABRIQUE DE REGISTRES
COSTA TSOUMAS & Co.
DAHER - LE CAIRE - TEL. 44118

هدية من المؤلف الى
مكتبة الجامعة الاميركية

A82AA

اسد الأشقر

892.74
A827mA

من صميم لبنان

حقوق الطبع محفوظة

79501

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع الحزب على بالظاهر - القاهرة تلفون ٤٤١١٨

الاهـــداء

إلى الزوجة والأم القومية الناهضة وأبنائها ،
تلك التى أدركت ، بقوة شعورها وإخلاصها ، رسالتى ورسالتها ،
فتنازلت عن كل حق لها على ،
طالما هذا الحق يضحى فى سبيل النهضة القومية .
وعلمت أبناءها أن لا يكونوا أنانيين ،
محتكرين عواطف أبيهم ونشاطه !
بل أن يساووا أنفسهم بكل أبناء الشعب ،
فيكونون جزءاً من العائلة القومية الكبرى ، التى يعمل لها أبوهم ؛
وإلى أشقائى وشقيقاتى الذين ، وإن لم يكونوا من المناضلين معى ،
فقد ساعدونى بسخاء فى هذه الحرب الأخيرة ،
حتى تمكنت من متابعة عملى فى الميدان القومى ،
إلى كل هؤلاء المتطوعين لخدمة الأمة والوطن ،
سواء مباشرة أومداورة ،
أقدم هذه المجموعة .

أسد الأشقر

مقـــدمة

إن الاستقلال الذى لا يرتكز على كل فرد من الشعب ، ولا يتغذى من كل مورد من موارد الوطن الحيوية ، هو استقلال واه ، يسقط لأول صدمة !

فنهضة شعب عريق فى المدنية كشعبنا تقوم على قواه الروحية والنفسية العبقرية المخزونة فى شخصيته ، وعلى كل الموارد الحيوية المخزونة فى أرضه ،

فان لم يتمكن هذا الشعب من فهم هذه القوى ووضعها فى حالة نشاط ونزوع إلى الابداع والتفوق ،

وإن لم يدرك مدى إمكانياته الاقتصادية ، ليوفقها عملياً مع مستوى طموحه التمدنى ، فان استقلاله يكون مناورة سطحية ، موقتة ، تمر على هامش حقيقته !

فلندرس ذاتنا أرضاً وشعباً ،

والمعرفة تولد القوة .

أرض بلادى[1] ! !

أرضُ بلادى ، أم لا ينضب ثديها ،
وينبوع لا يغيض منفجره !
كريمة ، ما استنديت كفها إلا فتحت يديها الاثنتين ،
ومضياف سخية ، ما نزلت ربعها إلا وقتك شر الناس وأنياب العوز !

* * *

أرضَ بلادى ! ما وجدت غيرك فى بلادى نقياً ، طاهراً !
تربة بلادى ! تراث الأجداد لم تدنسه يد الأثمة !
وميراث الطبيعة ، لم يسلبناه طمع الطامعين !
تربة بلادى ! أنت ثروة لا تسلب !
وعرض لا يثلم !
أهملوك ؛ فتحولت سهولك الخصبة إلى صحارى !
وتغيرت سفوح جبالك المخضرة إلى يبس !
وظهرت جبالك وسفوحك جرداء من الأرز والصنوبر والسنديان والزيتون ،
أشجار القوة والثبات ،

---

(١) كتبت فى بيت حبيب بربر البعينى حيث كان المؤلف متخفيا سنة ١٩٤٢ ، عاصيا على الاوضاع الظالمة التى كانت تطارد القوميين فى لبنان

تشق صدرك بقوى عنصرها ،
وتمتص حيوية الحياة من بين الصخور المتكاتفة !
إن خصب سهولك المندثر ،
واخضرار سفوحك الزاوى ،
وجلباب غاباتك الممزق ،
ليس إلا رداء من أردية ثروتك المخزونة ، الخالدة !

* * *

العزم فى سواعدنا دق الأمخال فى أصول الصخور فاقتلعها !
والقوة فى أيدينا رفعت المهدات الضخمة فحطمت الصخور واستعملتها ،
والسبق فى ثقافتنا غرس الزيتونة والكرمة والتينة مكان العليقة والعجرمة !
وعوم الأرز والسنديان على اليمّ ،
لتحمل الزيت والخمر والتين إلى الشعوب الأولية الجائعة !
والفن فى نفوسنا نحت الحجارة نحتا مبدعاً ورفع منها الهياكل الخالدة !
نشاطنا السابق جعل من سهولنا الواسعة أهراء العالم القديم !
وتوثبنا نقلنا إلى العوالم الجديدة ،
لنعلمها ما اخترع فكرنا ،
وما صنعت أيدينا ،
وما أنتجت أرضنا .

* * *

عزمنا أمسى وهناً !
وقوتنا صارت ضعفاً وخمولا !
وتفوقنا انحط إلى الاقتباس الأعمى والتقليد !
نشاطنا تحول إلى كسل !

وتوثبنا انقلب استكانة خائفة ، مجرمة !
وحبنا لأرضنا ، وقد دعاه العالم القديم « إثماً »
صيره الاجداب والمحل بغضاً ويأساً .

* * *

لقد خسرنا كل شيء إلاك ، أيتها التربة الكريمة !
ولقد تغير كل شيء إلا ما تخزنينه فى صدرك وقلبك !
فصدرك قوى ، غنى ، وقلبك حى ، خفاق !
كنا نلبس من أهداب وشاحك الحريرى ،
ومن نمو صوف أغنامك ،
ونأكل من فيض خيراتك ،
فأمست أرديتنا دينا على كاهلنا ،
لأن دود حريرك قد مات ،
وصوف أغنامك قد جز ،
ومحاصيل حبوبك قد نهبت
وثمارك مكدسة فى أسواقنا ولا من يأخذ منا
ليعطينا ستراً لعرينا ،
ونوراً لظلام ليلنا !

* * *

أرض بلادى ! أنت البقية الاخيرة من تراثنا المادى الغالى
وهذا الشعب المجزأ إلى قطعان طائفية ،
هو بقية تراثنا المعنوى !
فسلام عليك فى انطلاق شعبك عبقرياً ، جباراً ، مغامراً ،

يمون حوض البحر المتوسط ،
ويحمل خيراتك وثقافتك للشعوب!
وسلام عليك عارية من أمجادك ،
وثكلى تبكين مهاجريك ،
وفقيرة تحضنين من بقى من بنيك !

* * *

أرض بلادى !
إنى أسمعك فى أعاصير شتائك ، وفى همس نسيمات ربيعك ،
وأتحسسك فى حرارة صيفك ،
وفى حسرات خريفك ،
تنادين شعبك ليعود إليك !
ليتمرد على سنة التطور ،
لينعزل عن المدنية الظالمة :
أراد أن يسير فى مواكبها ،
فأخذت حقها وبخسته حقه ،
وكان سخياً عليها، فأخذت منه ولم تعطه!
تنادين شعبك ليعود إلى الحياة الزراعية الأولى ،
وهى تأمين ضروريات الحياة بالتبادل الداخلى البسيط ،
ليرتدى الثوب الرخيص تحوكه الأم والأخت فى ليالى الشتاء ،
ليزرع كل ما تشتهيه نفسه ،
وأنت تعطينه حبته مائة وألفاً !
إن شعبا متمدنا كشعبنا لا تدخله المدنية فى نظامها العام ،

لينصب ميزان الاقتصاد على شواطئه وتخومه :
يعطى بكفة ويأخذ بأخرى ،
محافظاً على التوازن ؛
إن شعباً تفرض على جسمه مصنوعات غيره ،
وعلى معدته محصولات غير تربته ،
وتقفل أسواق العالم فى وجه مصنوعاته ومحصولاته ،
هو شعب أحرى به ،
إذا كان واعياً ذا أعصاب متينة :
أن يقلع عن كماليات المدنية الحاضرة كلها ،
راجعا إلى حياة أولية ساذجة ،
فى مظاهرها المادية ،
ولكنها أسمى ما وصل إليه الإنسان المتمدن ،
فى روحانيتها .

* * *

أرض بلادى !
لقد أساء إليك المجرمون من أبنائك،
فأوصلوك إلى حالتك الفقيرة المحزنة!
وقد جزأوك قطعا من رأسك إلى قدميك !
ونهش الأغيار أطرافك وسلبوها ،
فأنت دامية العنق، مهشمة القدمين !
ثم أهملك فى محنتك أكثر أبنائك ،
فالضعيف هرب من الصعوبات ،
والمخلص العاجز هرب من المشاهد المحزنة ،

والسياسى الجاهل يشهد كل يوم مآسيك .
بقلب المجرم المدمن ،
الفاقد الإحساس والوجدان .

* * *

لم يبق لك أيتها الأرض المحبوبة ،
سوى ابنك الأبر ،
فلاحك الجبار ،
يكافح منذ مئات السنين أنظمة بجحفة ، مرهقة ،
كأنه فى معركة اجتماعية ترافق الأزل !
فكونى كريمة ، سخية عليه ،
بخيراتك وفيض نعمك ،
لانه كريم ، سخى
بقلبه وحياته !

لماذا أنا بعيد عنكم[1] ؟

يا فراخى الثلاثة !
يا أملى وغسانى ونضالى !
ولدتم فى أحلامى قبل أن ارتعشتم فى أحشاء أمكم !
وتغذيتم من خيالى ومثلى العليا قبل أن امتصصتم عناصر الإخلاص والشجاعة من أمكم ،
وقبل أن رضعتم محبتها لكم ولوطنكم !

قبل أن تتفتق أكمام إحساسكم ،
وتنبثق العواطف من قلبكم وأنظاركم ،
وتبدأ أنفسكم بتخزين الجمال والقوة والمحبة ،
طرت بكم على أجنحة الحديد وأجنحة الأمل ،
لأطبع فى نفسكم أحب الصور إلى قلبى ونفسى :
صور وطنكم !
والوطن يا فراخى ، أين يبدأ حبه ؟
أتعلمون ؟

---

(١) كتبت هذه الرسالة من معتقل « الميه وميه » إلى أولاد المؤلف : أمل ، غسان ، نضال وهم وقتئذ فى السابعة والسادسة والثانية من العمر .

إنه يبدأ فى حب الشجيرات النامية بحيوية مدهشة فى الحديقة المحيطة ببيت جدكم أبى يوسف .

إنى قد ربيتها معكم ،

وقربتها إلى قلوبكم الصغيرة ،

كى تنموا كلكم فى آن واحد ،

فتتفاعل عواطفكم النبيلة مع اخضرارها العطوف ،

وتقدمون لها الحب والعناية ،

بينما هى تقدم الاظلال والأثمار !

إنى أستعرضها الآن فى خيالى واحدة واحدة :

فأرى غسان يرافقنى ،

ويدلنى على أسرار نموها وخفايا بواكيرها :

وبينما أنا أتفقد زيتونة تبتسم بغصيناتها الأولى ،

وأساعد نموها بتشذيب الفروخ النامية حول أصلها ،

إذا بغسان يجرنى بيدى ،

ليرينى ظهور التينة لأنوار الشمس من « موقدتها » العميقة ،

سائلا إذا كان عليه أن يقدم لها بعض المساعدة .

أما أمل ،

فها هى تسرع إلينا ،

بعد أن اكتشفت سراً بين قضبان الدوالى المورقة لسنتها الأولى .

وها هى تجرنا ، نحن الاثنين ،

لتطلعنا على اكتشافها العجيب .

وهى لا تبوح بسرها إلا محل الاكتشاف.

هناك توقفنا على قدمين أو ثلاثة ،

وتحذرنا من التقدم ،
وعندما تأمن طاعتنا وتقيدنا بأمرها ،
تقلب الغصن فجأة ،
وترينا خصلة من الحصرم ،
مقترحة أن نغرس ألوفا من الدوالى ،
إذا كانت كلها تطعم فى السنة الأولى !

* * *

والآن ، يا غسان وأمل !
أطلب منكما أن تأخذا نضال فى كل صباح ،
كل يد من يديها الصغيرتين ،
وتقوما بنزهة فى الحديقة ،
حيث تدلانها على الأزهار الجميلة ،
والأشجار المثمرة .
ثم تقطفان لها الثمرة اليانعة ،
وتقدمانها لها لتتلذذ بطعمها ،
وتحس أن الشجرة هى مضياف سخية ،
وأن الأرض هى أيضاً أم حنون ثانية !

حب الوطن يا فراخى ، لا يبدأ فى الكتاب ،
ولا فى القصيدة الطنانة ،
ولا فى الأقوال على اختلافها ،
بل فى هذه الأشجار الكريمة ،
وفى هذه الأرض المتفجرة ينابيعها ،

وفى هذه السماء العجيبة بسنائها !
فخزنوا ما استطعتم من عناصر الجمال والقوة ،
الموزعة فى أرجاء أرضكم وسمائكم !

* * *

أنتم تتساءلون يا فراخى ،
لماذا أنا بعيد عنكم ؟
والمستقبل سيقول لكم :
إنى بعيد عنكم كى لا تبتعدوا أنتم يوماً عن أبنائكم !
وإذا كنت أنا مبعداً عنكم ؛
فلكم من شطركم الثانى ،
الشطر الذى غذاكم ويغذيكم بالاخلاص والشجاعة ،
ما يغنيكم عنى الآن !
إن أمكم تعلم ما يجب أن تحبب إلى قلوبكم ،
لأن كل حبيب إلى قلبى ؛
هو حبيب أيضا إلى قلبها !
فقد اتحد قلبانا لينشئا منكم :
قوة الغد المنقاة والمطهرة من شوائب الخوف ، والضعف ، وكل أمراض المجتمع الحاضر !
فالعبوا بقرب أمكم ،
واطبعوا فى نفوسكم لوحات الجمال المنحدرة من قمم صنين إلى شواطئ بحركم ،
وانتظروا مجيئى !

أبوكم
أسـد

الميه وميه فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٤٣

المهاجرة اللبنانية

أسبابها الاساسية وعلاجها

محاضرة ألقيت فى نادى لبنان فى القاهرة

فى ١٠ يناير سنة ١٩٤٦

المقـــدمة

منذ أن وقع لبنان تحت نفوذ العثمانيين عام ١٥١٥ دخل مرحلة هى من أقسى مراحل تاريخه ، استمرت إلى عام ١٩٤٣ ، ولم ننته بعد من عواقبها الوخيمة . وقد سميت هذه المرحلة العثمانية ، التى بدأ الاغتراب فى أواخرها ، مرحلة « الانعزال والمحافظة » . فان لبنان وقع تحت نفوذ دولة هى أحط منه مرتبة فى سلم المدنية الانسانية ، فلم يسمح لنفسه بالنزول إلى مستواها ولا تمكن من الخلاص منها ، لذلك اتبع سياسة هى أحكم ما يمكن أن يبتكر شعب صغير متمدن واقع تحت نفوذ دولة قوية عاتية . وتلك السياسة الحكيمة كانت المحافظة على كيان لبنان الاجتماعى والاقتصادى محافظة تامة ، وعلى كيانه السياسى والقومى بقدر ما تسمح الظروف والامكانيات .

يقول أحد علماء الاجتماع : —

« إذا فرض نظام منحط على شعب ضعيف متمدن ، فاما أن ينحط ذلك الشعب إذا كانت نضبت حيويته ، وإما أن تفعل مدنيته فى المسيطر فترفعه إلى مستوى متمدن ، وإما أن ينصرف ذلك الشعب الضعيف إلى النزوح فينقرض » .

ألم يكن لبنان فى العهد العثمانى ذلك الشعب الصغير الضعيف الذى تعنيه هذه النظرية الاجتماعية الفلسفية ؟

أجل ، لقد قاسى لبنان هذه الحالة الشاذة طوال أربعة قرون كاملة . فقد سيطرت عليه دولة عسكرية مغولية لا يهمها أن تفهم عن الشعوب التى تحكمها إلا خضوعها وطاعتها ودفعها الضرائب على اختلاف أنواعها .

وقد سيطرت هذه الدولة على المناطق السورية المحيطة بلبنان ، وأقفلت عليه البحر فأمسى فى قفص ممیت ، لا يتفاعل اقتصادياً إلا ضمن حدوده الضيقة وقليلا مع الولايات المجاورة .

انقطع لبنان عن مجارى المدنية العالمية حتى منتصف القرن التاسع عشر فتجمدت قواه الفكرية فى قوالبها القديمة ، ولولا مؤسساته الدينية لكان خسر قواه الروحية أيضا . وفى انعزاله الاقتصادى عن العالم المتمدن انعكف لبنان على نفسه يستثمر عناصر الحياة فى أرجائه ، وصمم على المحافظة على كيانه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى مهما تطلب ذلك من تضحيات ومن حرمان فى كماليات الحياة ، فطبق سياسة الاستغناء والاستكفاء وكيّف حياته طبقا لموارده الطبيعية التى أوصلها إلى أكثف درجة من العمران الزراعى . تجمدت الحياة فى لبنان فى العهد العثمانى القاتم ولم تقدر أن تجارى المدنية فى مظاهرها الجديدة المتطورة . أما جوهرها فبقى سليما إذ حافظت

على تقاليدها الراقية وعلى قواها الروحية ، وبقى السكان فى نمو مطرد والزراعة فى تقدم مستمر . وقد حاول لبنان مرتين أن ينعتق من عزلته ويتحرر من السيطرة العثمانية الغاشمة . . . الأولى محاولة الأمير فخر الدين المعنى الثانى الكبير الذى شاء أن يحرر لبنان من النير العثمانى ويضعه فى تيار شعوب البحر المتوسط الناهضة . والثانية محاولة الأمير بشير الشهابى الكبير وقت حالف إبراهيم باشا وحارب الدولة العثمانية فكان للبنانيين والمصريين انتصارات باهرة فى تلك الحرب الاستقلالية العظيمة .

ولكن شاءت الاقدار أن تخفق المحاولتان ، وحكمت الظروف ألا يطل لبنان على العالم المتمدن إلا عن طريق الاغتراب ، وهو موضوع هذه المحاضرة .

بدء الاغتراب

فى الثلث الأخير من القرن الماضى بدأ اللبنانيون بالاغتراب عن وطنهم . ومنذ أوائل هذا القرن أخذ اغترابهم يكثر ويلفت النظر ويتخذ شكلا من المهاجرة كمهاجرة الايطاليين والايرلنديين إلى أميركا . ومع الزمن أخذ المغترب يستقدم المقيمين من أهله وأنسبائه والمقيم يستجير بالمغترب طالباً الالتحاق به ، إلى أن أمست تسمية تلك الحركة بالاغتراب غير منطبقة على الواقع ، لأنها أمست فى العشرين سنة الأخيرة أتعس من المهاجرة . أمست نوعا خطراً من النزوح المتواصل الذى يؤول غالبا إلى الانقراض التدريجى والانصهار فى أقوام غريبة .

وإلى الآن يتساءل اللبنانيون فى وطنهم وفى أمصار اغترابهم عن أسباب

ذلك النزوح الذى أدى إلى كارثة اجتماعية وشعبية . ولم يتفقوا بعد على جواب موحد يرضى رغبتهم فى معرفة حقائق تعد معرفتها ضرورة أساسية فى حياتهم . فمنهم من يرجع السبب إلى جور الأتراك . ومنهم من ينسبه إلى تعصب جماعة ضد جماعة . ومنهم من يظن السبب فى فقر البلاد بمواردها الحيوية . ومنهم من يفتخر بالاغتراب ويسميه طموحاً لا يرضيه المحيط الضعيف فيفتش اللبنانى عن محيط أرحب لآفاق نشاطه .

لاشك أن فى هذه الأسباب المزعومة عوامل ساعدت على الاغتراب ، ولكن هناك فى نظرى عوامل رئيسية تتضح لكل من يدقق فى درس مجتمعنا ، وهذه الأسباب تكوّن نواميس اجتماعية على الإنسان أن يخضع لها مهما كان جباراً .

اللبنانى متعبد لارضه

لماذا هجر اللبنانى لبنان ؟

لماذا هاجر هذا الإنسان المتعبد لارضه كما يتعبد النساك فى صوامعهم؟

لقد وصل اللبنانى بحب ارضه إلى القول : « قفة شلوش ولا قفة قروش » . وهل توجد أرض فى العالم تعب عليها شعبها كما تعب اللبنانى على أرضه ؟

كما يدهن الفنان لوحته الفنية كون اللبنانى هذا الجبل . وكما ينحت الفنان العبقرى تمثاله اكب اللبنانى على السفوح والهضاب ، على المرتفعات والوديان ، على الحزون والجبال ، خلال مئات طويلة من السنين ، يصب على أديمها كل ما فى ساعديه من نشاط وما فى دماغه من نبوغ وتفوق حتى جاء لبنان تمثالا جبارا للفن والنشاط ، وللجمال والقوة .

كل قبضة من التراب حركتها قبضة من العزم ، وكل حجر على المنعطفات ركزته يد عامل حاذق متفوق . وكل شجرة فى البستان أو فى الغابة قلمتها أنامل مزارع خبير نشيط .

ونشأت على مر الاجيال والقرون تقاليد وعادات لبنانية راقية ، انبثقت عن الانسان اللبنانى وعن أرضه الحبيبة . عن ذلك التفاعل الدائم مئات من السنين بين الانسان ومورد حياته ، بين الانسان ومعاقل مدنيته ، بين الانسان وحصون قواه الروحية ، حتى صار اللبنانى ولبنان شخصية متحدة اتحاد الروح بالجسد . فهل يمكن أن يتنازل اللبنانى بسهولة عن أرض شربت عرق جبينه وامتصت عزم ساعديه حتى صارت جزءاً منه وصار جزءاً منها ؟ هل يمكن لهذا النحات المغرم بصنع يديه أن يحتقر هذا الميراث الفنى العجيب الذى اشتركت فى صنعه أيادى أجداده ويداه حتى جاء أروع صورة تحت الشمس .

لا بد إذن أن تكون طرأت على اللبنانى ظروف قاهرة أرغمته إرغاما على أن ينسلخ عن معابد أرضه فما هى هذه الظروف القاهرة ؟

مراحل الاغتراب

قد قسمت اغتراب اللبنانى إلى ثلاث مراحل : ــ

المرحلة الاولى : ــ منذ بدئه فى الثلث الاخير من القرن الماضى إلى سنة ١٩١٨ وهى مرحلة الاغتراب المؤقت .

والمرحلة الثانية : ــ « مرحلة المهاجرة والانهيار » وقد بدأت تتكون أسبابها الرئيسية منذ سنة ١٩١٨ واستمرت إلى سنة ١٩٤٣ .

والمرحلة الثالثة : ــ وهى التى لا أقدر أن أعطيها اسما الآن بل

اللبنانيون أنفسهم سيعطونها ذلك الاسم . فاما أن تكون ذيلا للانهيار والانقراض التدريجى ؛ وإما أن تكون نهضة وطنية جبارة . نهضة إياب إلى الوطن الحبيب الناهض بصعوبة والمحتاج إلى كل فرد من اللبنانيين .

المرحـــلة الاولى

الاغتراب المؤقت

إن العوامل المباشرة التى دفعت اللبنانى إلى الاغتراب المؤقت هى فى نظرى خمسة :

(ا) اتصال اللبنانى بالغرب عن طريق البعثات الاكليريكية اللبنانية والمؤسسات الأجنبية .

(ب) تقدم وسائل المواصلات البحرية وسهولة السفر .

(ج) حب اللبنانى للانعتاق من العزلة التى أوجدته فيها السيطرة العثمانية.

(د) توتر الأمن الداخلى بعد خلع آخر أمير لبنانى سنة ١٨٤٢ .

(ه) كثافة السكان وضيق أراضى لبنان الزراعية وعدم تمكن الشعب من إنشاء صناعات حديثة لانعزاله عن التطور الصناعى فى الغرب أو من الانتقال إلى السهول الخصبة لعدم استتباب الأمن .

هذه هى العوامل التى سببت المرحلة الأولى من الاغتراب اللبنانى فان هذه العوامل تضافرت ودفعت اللبنانى ليشق الحصار الاجتماعى والاقتصادى المضروب حوله منذ أجيال عديدة .

والفضل الأول فى فتح شبابيك نور من الغرب لا يرجع إلى البعثات الأجنبية كما يتوهم البعض بل إلى البعثات الاكليريكية اللبنانية ؛ فان هذه البعثات اللبنانية بدأت تتصل بالغرب منذ سنة ١٦٠٠ بينما الأخرى لم تتصل

بنا إلى حوالى سنة ١٨٥٠ . وإذا كنا نلوم المؤسسات الاكليريكية اليوم لتورطها فى ميادين السياسة ؛ فاننا لا ننكر عليها خدماتها الثقافية والروحية الماضية بل نسجلها بالتقدير والاعجاب . ونلومها اليوم لأنها أهملت الحقل الثقافى والروحى وانجرفت مع تيار السياسة وهى تجهلها . وإذا أعطيت الفضل الأول إلى بعثاتنا الاكليريكية فانى لا أنكر ما للمؤسسات الثقافية الأجنبية من فضل فى نهضة لبنان الثقافية كما أنه لا يمكننى أن أتعامى عن الضرر الذى ألحقته بالبلاد بعض تلك المؤسسات الأجنبية عند ما بدأت تستعمل الثقافة والدين لأغراض سياسية أجنبية .

بدأ الاغتراب أولا فى العيال العديدة وفى الافراد المتعلمين . فالعيلة التى كانت تتألف من ثمانية أشخاص إلى اثنى عشر شخصاً ، وما كان أكثرها فى لبنان القديم ، — بدأت ترسل شخصاً أو اثنين من أفرادها ليجربوا حظهم فى أميركا الغنية . فالأملاك الضيقة فى الجبل لم تكن تكفى هذه العيلة العديدة لتنجز أ بعضها عن بعض وتؤلف عيالا مستقلة . والمتعلم لم يكن يجد مجالا للعمل لأن كل المشاريع التى يمكن أن تستخدم المتعلمين كانت مفقودة إلا اذا أراد ان يكون معلم أولاد فى قرية جبلية صغيرة .

كان يسافر اللبنانى فى بادىء الامر وفى رأسه فكرة عمرانية نشيطة تنقسم إلى قسمين : الاول أن يساعد أهله على البقاء فى الوطن والاهتمام بالاملاك وتحسينها ؛ وثانيا أن يجمع مئات من الليرات الذهبية ويعود إلى لبنان فيشترى أرضاً ينقبها ويشجرها توتاً وكروماً ثم يعمر فيها بيتاً صغيراً ويؤسس عيلة مستقلة . وهكذا بدأ لبنان المغترب يساعد لبنان المقيم على الثبات والعمران والتقدم .

لم يكن الاغتراب عاملا هداما إلى سنة ١٩١٤ :

بقى الاغتراب يزداد مدفوعا بالعوامل المذكورة إلى أن اشتعلت الحرب الكبرى ١٩١٤ . ولكن إلى ذلك الحين كان الاغتراب فى أخذ ورد ، يزيد الاغتراب عن الإياب قليلا ، ولكن هذه الخسارة تعوض بما يرسله المغتربون من مال ليساعدوا على تحسين العمران من كل نواحيه وعلى تأسيس عيال جديدة . فالاب يساعد أبناءه والشقيق أشقاءه ، وبهذه المساعدات كانت تشجع حركة الزواج وتزداد المواليد من سنة إلى سنة .

لم يكن الاغتراب إلى سنة ١٩١٤ قد أحدث أى تأثير انحطاطى تهديمى على لبنان . فالسكان كانوا فى ازدياد مطرد وموارد الحياة الزراعية والصناعية فى تقدم . فزراعة التوت وصلت فى ذلك الحين إلى الأوج ، حتى بلغ محصول الشرانق فى سنة ١٩١٤ خمسة ملايين كيلو . وهو أعلى محصول سنوى وصل إليه لبنان فى تاريخه . وصناعة الديما وسائر الاقمشة كانت تعم العائلات المتوسطة والطبقة العاملة ، فكان يندر أن تجد بيتاً فى الجبال ليس فيه نول أو نولان . ولم تكن فى لبنان يد بطالة . والزراعة كانت وصلت إلى مدى من الكثافة لم تبلغه بلاد جبلية فى العالم . إن السائح الغريب كان يندهش بدون شك عند ما كان يرى أشجار الزيتون مغروسة بين الصخور فى أحراش السنديان والعفص وعند ما كان يرى شجرات التوت تحيط بكل بيت فى الجبال حتى لا تترك إلا ممر رجل ، طريقاً إلى البيت ، وأحياناً عديدة كنا نرى توتة كبيرة نابتة من تحت الدرج أو من تحت حائط البيت حافظ عليها الآباء لا ليتفيؤا ظلها بل ليستغلوا أوراقها . ولا شك أن الغريب الماشى ليلا فى الجبال كان يتساءل عن سبب هذه الحركة المسموعة تقريباً فى كل بيت ، وكان يظن أن اللبنانيين يقومون فى

الليل ليدقوا الكبة . أما الحقيقة فهى أن تلك الحركة ما كانت إلا ضرب الانوال . إن صناعة الديما كانت صناعة قومية دخلت فى الحياة العائلية وصارت جزءاً منها كتربية دودة القز بل أكثر ، لأنها تشغل العيلة طيلة السنة لا فى فصل واحد .

إن قسما كبيراً من منتوج الديما كان يصدر إلى الأناضول وإلى مناطق أخرى من الامبراطورية العثمانية . فالصناعة اللبنانية إذن رغم انعزالها عن النهضة الصناعية الغربية تمكنت من أن تتقدم قليلا وتصبح مورداً رئيسياً من موارد البلاد الصناعية .

الحرب الكبرى :

وجاءت الحرب الكبرى بويلاتها وأهوالها ، فقطعت كل صلة بين المغتربين والوطن ، وانهالت على لبنان بكوارثها القتالة : من الاحتلال التركى المخرب ، إلى المظالم السياسية التى أدبت الرعب فى كل قلب ونصبت المشانق لكل من يتنفس بالحرية ، إلى المجاعة المرعبة التى أفنت ثلث سكان لبنان ، وخربت ثلث أراضيه الزراعية ، وثلث بيوته الجبلية .

وقد خرج لبنان من الحرب الكبرى مشوها تشويها مخيفاً فى شعبه وفى عمرانه . فالتقدم الزراعى الذى كان يحول لبنان إلى بستان كبير من التوت والزيتون والكرم والتين والليمون ترتفع فيه البيوت الجبلية البسيطة أمسى شبه خراب يترامى للناظر كأنه حديقة غناء داستها جيوش البرابرة بعد أن كانت نسقتها بحذق وذوق ولطف أنامل غادة عبقرية تريد أن تستقبل حبيبها .

لم يكن من أمل فى إعادة العمران إلى لبنان بالاعتماد على إمكانياته كما

حدث فى البلدان الاخرى التى خربتها الحرب ، لانه لم يكن فى لبنان الوعى الكافى لاحداث نهضة اقتصادية تعيد إلى الشعب نشاطه الاقتصادى وتستثمر موارده الحيوية .

سقط محصول الشرانق سنة ١٩١٨ إلى ثمانمئة ألف كيلو بعد أن كان خمسة ملايين كيلو سنة ١٩١٤ وكانت الحالة تنذر بكارثة أشد فتكا من الكارثة التى لم تتوار أشباحها المخيفة بعد .

ولكن المغترب اللبنانى ، الذى قضى أربع سنى الحرب الكبرى منعزلا عن وطنه وأهله كأنه فى منفى ، كان مستعداً أن ينفق كل ماربحه فى الحرب تخفيفاً للآلام والعذابات التى تحملها أهله خلال أربع سنوات من الظلم والارهاق والمجاعة .

فما كادت الحرب تضع أوزارها حتى بدأت أموال المهاجرين تنهال على لبنان من كل جهات العالم . ولم تأت سنة ١٩٢٠ حتى بدأ المغتربون يصلون إلى لبنان حاملين أموالهم وكنوزهم وغمرت لبنان بحبوحة من العيش جرب اللبنانى خلالها أن يرمم معالم الجبل المنهار .

ولكن مع المغتربين وأموالهم ، ومع دخول الحلفاء وجيوشهم اجتاحت لبنان موجة طاغية هى موجة المدنية الغربية بمستوى مادياتها العالى وكمالياتها الغالية . هى مدنية لا تتحمل نفقاتها إلا الشعوب الغنية التى بنت حياتها على أسس اقتصادية لا تتزعزع . الغرب وصل إلى هذا المستوى من الحياة بالتدرج ، فكان النشاط الاقتصادى بمثابة دولاب يشد بمستوى الحياة إلى الارتفاع الدائم . أما عندنا فقد حمل الانتداب الفرنسى والمهاجرون أساليب الغرب فى الحياة ورموها فجأة فى مجتمع لم تصل اقتصادياته إلا بالكد إلى سد ضروريات الحياة الملحة .

غذى المغتربون العائدون والمغتربون المقيمون فى مهاجرهم هذا الوضع الجديد نحو خمس سنوات وأكثر، ولكنهم عجزوا أخيراً عن متابعة السير على هذا المنوال. أيقدر المغتربون أن يتحملوا عبء المقيمين مع المستعمرين واللاجئين ؟! بدا العائدون بالاغتراب من جديد، وشحت الحوالات المالية من المهاجر وكان ذلك حول ١٩٢٦.

منذ ١٩٢٠ بدأت جراثيم الانهيار تفعل ببطء فى جسم الكيان اللبنانى الاجتماعى والاقتصادى.

لبنان المحافظ منذ أربعمائة سنة على مستوى من الحياة وقاه من الكوارث الاجتماعية والاقتصادية، لبنان الذى نما سكانه وازدهرت اقتصادياته رغم انعزاله والحصار المضروب حوله، هذا اللبنان زاح عن محوره الاجتماعى والاقتصادى منذ أن عاد ألوف المغتربين بعد الحرب، ومنذ أن استتب الانتداب الأوربى. زاح عن محوره القديم، محور الانعزال والمحافظة، وترك لنفسه مشلولا يعيش على هامش الدورة الاقتصادية العالمية. ليس له محور جديد يحل محل المحور القديم: فلا هو قادر أن يتابع سياسة الاستغناء والاستكفاء، ولا هو قادر أن يجارى السير الاقتصادى العالمى.

جرب اللبنانى المقيم، والمغترب العائد أن يرمما معالم الحياة اللبنانية القديمة ويجددا شبابها، واستمر هذا النشاط الجديد إلى سنة ١٩٢٩ فارتفع محصول الشرانق من ٨٠٠٠٠٠ كيلو إلى ٢٣٠٠٠٠٠ سنة ١٩٢٩.

ولكن ذلك النشاط المبذول وتلك الأموال المنفقة ذهبت كلها أدراج الرياح، إذ أن سقوط الأسعار المصطنع وتقلبات النقد الغير مبررة أوقفت اللبنانى فى حالة مريرة من اليأس، فأهمل زراعته الرئيسية بعد سنة ١٩٢٩

وعاد المحصول يتدهور حتى وصل إلى نحو ٣٠٠٠٠٠ كيلو سنة ١٩٣٦ .

وإذا شددت على التدقيق فى محصول الشرانق فليس لأن المحاصيل الأخرى كانت أكثر حظاً ، بل لأن محصول الشرانق هو المحصول الرئيسى المعول عليه فى حياة اللبنانيين .

المرحلة الثانية

مرحلة الانهيار

« راحت السكرة وجاءت الفكرة » يقول المثل اللبنانى .

إن أحلام القصور والبساتين والكروم والحياة الرغيدة فى ربوع لبنان قد تحولت بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٣٩ بصورة خاصة إلى كابوس مخيف . الثروة التى جاء بها المغتربون بعد الحرب الكبرى والتى كانوا يغذون بها وطنهم خلال هذه السنوات كانت تذوب كشمعة فى لهيب . وكل النشاط الزراعى والتجارى الذى بذله اللبنانى المقيم والمغترب لوضع أساس لحياة جديدة ثابتة أخذ يتدهور مع سقوط أسعار المحاصيل ومع تقلبات النقد حتى يئس اللبنانى أخيراً من العمل فى بلاده واندفع بكل قواه فى تيار المهاجرة اليائسة .

بدأت إذ ذاك كارثة المهاجرة الحقيقية . ألوف من المغتربين الذين جاءوا بعد الحرب الكبرى بثروات طائلة وجدوا أنفسهم مضطرين أن يهجروا وطنهم من جديد بعد أن خسروا ثرواتهم . عيال ألوف كانت جمعت نفسها بعد التشتت عادت تهجر كلها دفعة واحدة منتشرة من جديد فى أقطار مختلفة . وكل ما أنفقوه من المال للعمران والتجديد سيمسى كمية مهملة يميتها الهجر والاهمال .

وبقى تيار المهاجرة الانقراضية يجرف اللبنانيين إلى سنة ١٩٣٩ . كان يجرف كل طبقات الشعب من العامل والفلاح إلى الملاك المتوسط ؛ إلى التاجر الذى أفلس فى بيروت ؛ إلى ابن العائله الاريستوقراطية العريقة فى الزعامة .

ومن راقب المهاجرة اللبنانية كما راقبتها أنا من سنة ١٩٢٥ إلى ١٩٣٦ فى مرفأ مرسيليا كان عنده الخبر اليقين عن آلامها وتعاستها . رأيت فلاحين فى الستين من عمرهم تاركين عيالهم ؛ بائعين أبقارهم ، راهنين أملاكهم ، ومغامرين فى سفرة إلى البلاد السوداء . رأيت دكاترة فى الحقوق مسافرين إلى دكار ليتاجروا فى الكولا والفستق . رأيت تجاراً بيروتيين قابعين فى دسكرة من دساكر أفريقية بعد أن كانوا يملكون المتاجر الواسعة . رأيت عيالا تتشرد . رأيت شعباً تمزق أوصاله ويسير إلى الفناء والانقراض .

أسباب المهاجرة الانقراضية :

والآن يحق لنا أن نتساءل ما هى الاسباب الرئيسية لهذه المهاجرة الانقراضية الجنونية ؟

الاسباب فى الدرجة الاولى هى اقتصادية وفى الدرجة الثانية اجتماعية وسياسية ، وهى فى نظرى أربعة : ــ

١ ــ دخول المدنية الغربية فجأة إلى لبنان واندفاع اللبنانيين فى تيارها

٢ ــ النقد الورقى وسرقاته .

٣ ــ إهمال مواردنا الاقتصادية الحيوية وعدم وجود سياسة اقتصادية قومية تحميها وتشجعها .

٤ ــ عبء الدولة اللبنانية الثقيل .

قد بينت فى مجرى الحديث مساوىء دخول المدنية الغربية فجأة مع المغتربين العائدين والحلفاء . وبينت كيف تدهور موردنا الزراعى الرئيسى وهو تربية دودة الحرير . بقى على أن أبين كيف تدهورت بقية مواردنا وأن أشرح الأسباب الأخرى :

النقـــد :

كلنا يعلم أن النقد هو عصب الحركة الاقتصادية ، خصوصاً فى بلاد لا توازن بين وارداتها وصادراتها . فالعجز فى صادراتنا بعد الحرب الكبرى كان دائماً يمثل أرقاما ضخمة مخيفة ولكن أموال المهاجرين كانت تحاول دائماً سد هذا العجز . واللبنانى تعلم خلال أربعة قرون من الانعزال والمحافظة أن يقتصد وأن يوفر القرش الأبيض لليوم الأسود .

كان سد العجز ممكناً فى المرحلة الأولى من الاغتراب ؛ وقت كان النقد ليرات ذهبية رنانة يتمنطق بها الجبلى بعد أن يبيع مواسمه أو أن يقبض حوالة من المهجر فيشعر أنه ملك مجهول . ويشعر بقوة وعزم للنضال والدفاع عن كل شبر من أرضه . وقت كانت الأم تخبىء الذهبيات والمجيديات فى صندوقها فتشعر بطمأنينة دائمة : إذا جاء فجأة عريس لابنتها تكون مستعدة لتجهيزها .

كان ذلك ممكنا وقت كان الشعب المقتصد كشعبنا إذا حرم نفسه من بعض الكماليات وقتر على نفسه يستعيض بالطمأنينة عن التمتع بكماليات الحياة . أما عند ما صارت ورقاته تبوخ وتشيخ بين يديه كما تبوخ وتشيخ أوراق الأشجار فى الخريف فصار الأفضل أن ينفقها ويتمتع بها .

لم تمض أشهر على ظهور النقد الورقى حتى بدأ بالسقوط ، فأخذ اللبنانيون يسرعون فى تصريف مامعهم من الذهب ظناً منهم أنهم سيربحون

عندما تعود الليرة إلى ما كانت عليه وقت ظهورها . إن أفراداً من الجبليين ما يزالون يظنون إلى الآن أن الليرة العثمانية ستعود إلى سعر خمس ليرات لبنانية .

أما التجار والصرافون والبنوك الصغيرة فكانت حالتها أتعس من باقي فئات الشعب . تصور تاجراً بيروتياً عليه أن يبدل نقده مرتين كل يوم : في الصباح يبدل الذهب ورقاً ليقدر أن يشتغل ، وفي المساء يبدل الورق ذهباً ليقدر أن ينام .

ولكن رغم كل هذه الوقايات الاصطناعية فان طبقة التجار كانت معرضة كل دقيقة للافلاس وهذه الحال من الخوف كانت تجمد رساميل ضخمة في صناديقها الحديدية وتشل الحركة الاقتصادية والعمرانية في البلاد .

إن شعباً كالشعب الفرنسي أو الإنكليزي أو الاميركي إذا كان نقده في خطر فان الحركة الاقتصادية القوية التي توفرها له دولته تمكنه من تجديد ثروته . وإذا خسر قسما من ثروته في سبيل الدولة فان هذه الدولة وجدت لتحمي مصالحه العامة وهي تعلم كيف توفر له أسباب الإثراء من جديد .

ولنفترض أن دولته لم تعوض من خسارته فانه يشعر أن من واجبه أن يضحي في سبيل دولته وشعبه . أما نحن فلم يكن من واجباتنا أبداً أن نضحي بثروتنا ، بتوفيراتنا وتقتيراتنا الطويلة ، بتعب آبائنا وأولادنا سنين طويلة في المهجر ، لم نكن نشعر أبداً أن ثروتنا يجب ان تتسرب إلى بنك فرنسه ، وتذهب ضحية رخيصة مجهولة حتى من الشعب الذي تضحي في سبيله .

مواردنا الحيوية :

لكل شعب من شعوب العالم موارد حيوية فى وطنه هى بالنسبة اليه كثدى الأم بالنسبة إلى طفلها . ولولا هذه الموارد الحيوية لما وجد ذلك الشعب وعاش فى وطنه .

وإن هذه الموارد الحيوية قداستأثرت مئات من السنين بجهود الشعب حتى اختبرها واكتشف أسرار استثمارها .

ماذا يبقى من الشعب البرازيلى لو انقرضت زراعة البن ولم تحل محلها بواسطة الدولة زراعة قومية ثانية ؟

ماذا يبقى من الشعب الفرنسى لو ماتت عنده زراعة الكرمة واندثرت صناعة المشروبات الكحولية ، وصناعة الروائح العطورية ؟

ماذا يبقى من الشعب الدنمركى لو تخربت مزارعه وفنيت تربية المواشى عنده وتعطلت معامل الألبان فى وطنه ؟

ماذا يبقى من الشعب المصرى لو تلاشت زراعة القطن والرز ؟

وماذا يبقى أخيراً من الشعب اللبنانى لو ماتت زراعة وصناعة الحرير وزراعة وصناعة الكرمة والزيتونة ، وزراعة وصناعة الفاكهة ؟

الجواب هو أنه إذا ماتت موارد هذه الشعوب الحيوية لا بد من أن تتلاشى تلك الشعوب تدريجياً .

أجل لم تمت موارد الشعوب التى سميتها لأنه قدر لها أن تتمكن من حماية موارد حياتها وبقائها ، ولم تمت إلا موارد لبنان فقط .

فبعد أن تدهور موسم الحرير كبل موسم التبغ بقيود قتالة فقضى عليه وتجمد موسم الفاكهة لانه لم يعط أسواقا فى الخارج ، وانحط موسم

الكرمة والزيتونة لهبوط الاسعار هبوطا لم يعد يعطى أجرة اليد العاملة . والهبوط هو دائماً دليل الخراب .

قد يقول قائل ان أسباب تدهور محاصيلنا كانت خاضعة لعوامل اقتصادية عالمية . كأن يقول ان حريرنا الطبيعى قد جرف فى تيار الحرير الاصطناعى اليابانى وغير اليابانى .

كلا . . هذه خرافة من الخرافات التى كانت تنتشر فى مجتمعنا فتضلل الشعب وتجعله يستسلم إلى اليأس . حتى أن أستاذاً كبيراً فى الاقتصاد كالأستاذ حماده وقع فى هذا الخطأ فقال فى كتابه :

(Economic Organisation of Syria) ما حرفيته : —

« إلا أن انتشار استعمال الحرير الاصطناعى والهبوط العام أثر فى أسعار الحرير تأثيراً سيئاً فنتج عنه تدهور فى تربية الشرانق وأجبرت معامل حرير عديدة على إقفال أبوابها . فهبط عددها من ٨٥ عام ١٩٢٩ إلى ٣٥ عام ١٩٣١ » .

وتعليقا على خطأ الاستاذ حماده يقول أحد المقررين المدققين : —

« ومن الغريب جداً أن يكتفى الناس بهذا التفسير ويعرضوا عن ثروة هائلة دون أن يكلفوا نفوسهم عناء البحث والتنقيب . وهم لو فعلوا ذلك (أو بالاحرى لو فعلت ذلك حكوماتهم) لوجدوا أن هنالك أموراً عديدة تناقض نفسها بنفسها . أهمها أن إنتاج الحرير الطبيعى كان فى ازدياد مطرد فى اليابان والصين وإيطاليا والهند حينما كان فى هبوط مستمر فى لبنان ، وحينما كان الحرير الاصطناعى فى أوج ازدهاره . والاحصاءات التالية تبين دون ما جدل حقيقة رائعة ألا وهى أن الحرير الصناعى فى العالم لم يؤثر على سوق الحرير الطبيعى بل بالعكس زاده رواجاً فى معظم الحالات

وهذه الاحصاءات نشرتها شركة الحرائر الاميركية : «

« إن الحرير الطبيعي ارتفع تصديره في اليابان من خمسة وعشرين مليون كيلو سنة ١٩٢٥ إلى ٣٦ مليون كيلو سنة ١٩٢٩ » .

« وتقول مجلة (Indian Textile Journal) الصادرة في نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١ وقت كانت أقة الشرانق تباع في لبنان باثني عشر قرش ونصف ، بسعر لا يمكن أن يتصوره عقل ، تقول تلك المجلة :

« مهما يكن في الأمر من غرابة فاننا نعلم الآن بالاختبار أن الحرير الصناعي يشجع إنتاج أصناف عديدة من الحرير الطبيعي » .

وفي ذلك الوقت الذي كان ينهار فيه موسم الحرير في لبنان ولا يربي الناس دودة القز إلا بدافع الاستمرار والعادة وطمعاً بالجزة لعلف البقر في ذلك الوقت تماماً كانت تنظم في اليابان وفي الصين وفي تنجنيكا وفي قبرص حركة تشجيع لزرع التوت وتربية دودة الحرير .

وبعد أن قضى قضاء تاماً على موسم الحرير رأت سياسة « فرق تسد وأفقر تستعبد [1] » أن هناك موسماً قومياً ثانياً يجرب أن يحل محل موسم القز في بعض المناطق ويجرب ان يصبح زراعة وصناعة راقية قد تدر على لبنان ملايين الليرات الذهبية . وقد تجعل من اللبنانيين صناعيين في صنف يعد كمالياً بأسعاره العالية ، وضرورياً بعدم استغناء الناس عنه ورواجه في العالم . إنه قد يصبح صنفا قابل التصدير بكثرة بسبب تقدم اللبنانيين بسرعة في فن إعداده . لذلك عمدت المفوضية الفرنسية على احتكاره وحصر زراعته في أراض محدودة وفي أياد معدودة . فأنشأت مؤسسة

---

(١) إذا كان الفرنسيون يرون في هذه المحاضرة تحاملا على فرنسة ، فانهم ، بكل أسف ، يكونون مايزالون مسيرين بقوة الاستمرار في تفكيرهم الاستعماري العتيق الذي لا يفرق بين الشعوب الابتدائية والشعوب المتمدنة ، ولا يميز بين فرنسة وبعض الاستعماريين الفرنسيين .

المونوبول الاستعمارية وصادرت كل المعامل اللبنانية وعطلت ألوفا من العمال عن العمل وألوفا من المزارعين عن الانتاج .

هبت البلاد من أقصاها إلى أقصاها تريد دفع هذا الحيف عنها ، تريد أن تقف فى وجه هذه الوقاحة الاستعمارية التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الاستعمار العالمى ولكن عبثاً .

صعاليك السياسة سلموا أخيراً بالامر الواقع ، والسلطات الفرنسية كانت مصممة على المضى بذاك المشروع التهديمى مهما كلف الامر .

وقضى أخيراً على هذا المورد الحيوى الذى كان يضاهى موسم الحرير وصناعة الديما فى تغلغله فى العيلة حتى يصبح جزءاً رئيسياً من حياتها . إن زراعة وصناعة التبغ كانت تتعاون العيلة اللبنانية كلها من صغيرها إلى كبيرها على استثمارها .

ما كان أجمل تلك العقود الشقراء تشكها أنامل الفتاة اللبنانية بفن وحذق وتعلقها على السطوح فتظهر للناظر كأنها أدوات زينة يصدرها لبنان إلى بلاد الزنوج .

وما أطيب السيكارة بعد أن تكون قلبتها فى يدها أنامل جبلية صنعتها فى بيتها قرب الموقدة وهى تصغى إلى حديث من تحب أو تسر ما يختلج فى فؤادها الطاهر . إنها سيكارة تحمل عادات وتقاليد شعب وتحافظ على حياة الشعب ومن قضى على هذه السيكارة الصغيرة قضى على حياتنا .

أما مأساة الفاكهة فى لبنان فهى مأساة الزراعة كلها ، بل مأساة شعب كامل تتمثل فصولها منذ عشرين سنة .

إن الشجرة اللبنانية المثمرة تغيرت فى سواحل لبنان أربع مرات فى

عشرين سنة. تصوروا ما يمكن أن تكلف الشعب عمليات كهذه. وقد ترك الشعب لنفسه مهملا، يقدّر مايريد ويفعل مايريد، مضارباً بثروته وجهوده. تصوروا فلاحا يقدم بجرأة وثقة بنفسه نادرتين إلى تجديد التوت بعد الحرب الكبرى، ثم إلى اقتلاع التوت وتشتيل الموز والليمون لما ارتفعت أسعارهما، ثم إلى اقتلاع الموز والليمون وزرع التوت من جديد، ثم إلى اقتلاع التوت كله بعد سقوط أسعار الحرير وغرس الليمون والموز مجدداً، وأخيراً، حول سنة ١٩٣٧، تمسى كل البساتين تقريباً مرهونة عند المصارف الأجنبية أو عند المرابين.

كما قتل الحرير والتبغ قتلت الفاكهة تماما، فلم تكن للفاكهة اللبنانية أسواق فى العالم بل كان على اللبنانيين أن يتحولوا إلى حيتان برية تلتهم كل محاصيلها. أما وارداتهم فتدفع من أموال المهاجرين.

وتصدير الفاكهة من لبنان كان خاضعاً لتقلبات الطقس فى أوروبا: فاذا اجتاحت بساتين اسبانية عاصفة هوجاء وأتلفت ثمارها، وإذا شحت المحاصيل فى أفريقية الشمالية وإيطاليا لحقنا نصيب من التصدير. وإلا كان علينا أن نوسع معدنا أو نهمل بساتيننا.

قد رأيت ألوف صناديق الليمون فى مارسيليا يرفض قبولها لأنه كتب عليها: (Exporté du Liban) والصحيح فى نظر الاستعماريين أن يكتب عليها:

(Exporté des Etats du Levant sous mandat français)

يعنى أن اسم لبنان يجب أن يتلاشى مع الوقت ويبرز التعبير الذى يفهم كل إنسان أن هذا البلد تحت الانتداب الفرنسى.

والغريب الغريب أنى راجعت مرة دائرة الاستيراد فى مارسيليا وطلبت استيراد كمية كبيرة من الفاكهة فقيل لى أن الكمية التى سمح بها

للبنان هى محدودة لأن هذا البلد هو مستقل وليس بيننا وبينه معاهدة تجارية .

بئس الاستقلال يا بشر ! ليتنا كنا مستعمرة ! إذن لأفدنا من نظام المستعمرات ، فقد حدث لنا ماحدث لأحد الظرفاء اللبنانيين الذى كان يدعى دائماً إلى حفلات الأعراس ليهرج ويضحك الجمهور . أما فى الولائم فكان الناس ينسونه حتى قال لهم أخيراً :

« لِمْ بيكون فى دق ورقص بيقولوا وين راح طنوس . ولِمْ بيكون فى أكل وشرب بيقولوا هادا منحوس » .

أنستعمر هذا الاستعمار الفظيع ولا يكون لنا الحق بالتمتع بنظام المستعمرات الاقتصادى ؟

وأخيراً لو لم تحدد الحكومة اللبنانية سعر ليرة الذهب وتقسط الديون حتى قتلت الدائن قتلا ، ولو لم تأت الحرب فترتفع أسعار الفاكهة وتستهلكها جيوش الحلفاء لكانت كل بساتين لبنان صارت ملكا للمصارف الأجنبية والمرابين .

لقد اندثرت مواردنا الزراعية والصناعية الواحد بعد الآخر وجرفت معها ما كان فى أيدى اللبنانيين من التوفيرات ، فهل يمكن أن نتساءل بعد لماذا هجر اللبنانى لبنانه ! ؟ . .

وهل أدركنا بعد هذا الوصف التفصيلى ما ذا يجب أن نفعل لنوقف تيار المهاجرة ؟ . يجب أن نجدد معالم حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أسس قومية جديدة تؤمن لنا استثمار أرضنا واستثمار مواهب شعبنا لمصلحته فقط .

الدولة اللبنانية :

إذا أردت أن أتوسع فى هذا الموضوع تحتم على أن أستعرض كل أطوار السياسة اللبنانية والانتدابية ، وبما أن هذا الموضوع قد شئته أن يكون اجتماعياً اقتصادياً بقدر ما يتمكن المرء أن ينفصل عن السياسة ، لذلك لن أتوسع فى هذه الناحية من المحاضرة بل سأعطيكم صورة مختصرة عن هذه الدولة اللبنانية التى سميتها عبئاً على كاهل الشعب .

كانت الدولة اللبنانية خلال خمس وعشرين سنة ذات أشكال وأجهزة تكلف الشعب اللبنانى ما تكلفه دولة تؤمن لشعبها كل إمكانيات الحياة، مع أنها لم تكن فى حقيقتها العملية إلا وسيلة لنهك الشعب وتخريبه بوسائل دستورية ، فالدولة اللبنانية بكل مؤسساتها لم تكن إلا دائرة من دوائر المفوضية الفرنسية تنفذ كل ما تؤمر بتنفيذه بجهل ولا مبالاة لا حد لهما .

فتصوروا كل مواردنا الحيوية التى ذكرت تنهار الواحد بعد الآخر بدون أن تشعر الحكومات اللبنانية بذلك الانهيار الذى يؤدى ، وقد أدى حتما ، إلى انهيار فى المجتمع اللبنانى وفى العمران اللبنانى .

وتصوروا كل مرافق البلاد : من موانىء وجمارك ومصارف وبرق وبريد وتليفون ومصالح مشتركة وشركات استثمارية ، تصوروا كل هذه المرافق فى أيدى المفوضية تستثمرها لتغذى ملاكها الانتدابى وجيوشها .

إذن ما هو العمل الحيوى الذى كانت تقوم به الدولة اللبنانية لتستحق أن توجد ؟ لتستحق أن ترهق كاهل الشعب بالضرائب ؟

الموارد الحيوية تخربت كلها .

والمرافق الحيوية فى يد الأجانب !

قد وجدت الدولة اللبنانية إذن لتصرف بعض أعمال إدارية بسيطة ولتعطى صورة دستورية شرعية لكل الأعمال التخريبية التى ارتكبت خلال خمس وعشرين سنة . فالدولة اللبنانية إذن بكل مؤسساتها التشريعية ، والتنفيذية والقضائية والإدارية كانت عاملا رئيسياً من العوامل التى سببت كارثة المهاجرة .

بعد أن رأينا كيف تضافرت كل العوامل الهدامة ودفعت باللبنانى ، بعشرات الألوف من اللبنانيين ليهاجروا يائسين من إصلاح بلادهم يجب أن نسأل :

« هل كان بامكان اللبنانى أن يتغلب على كل هذه العوامل ويبقى فى بلاده ؟ »

وأجيب : — « كلا » .

إن هناك نواميس اجتماعية قد يتغلب عليها أفراد قلائل أما المجموع فيتحتم عليه الخضوع لها .

يهاجر شعب من الشعوب الراقية كشعبنا عند ما يوجد فى أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية لا تتجانس مع مستواه التمدنى ومع طموحه إلى الارتقاء الدائم . فان شعباً عريقاً فى المدنية كشعبنا عرضت أمامه كل وسائل الحياة الراقية بعد الحرب الكبرى ، فأراد بعد انعزاله الطويل وحرمانه ، أن يتمتع بكل مقومات الحياة الراقية ، وأن يستثمر كل موارده وإمكانياته المادية والفكرية والروحية ، ولكن نظاماً مختلا فرض عليه فرضاً فأحدث خللا أساسياً فى متطلبات المدنية وفى الإمكانيات الاقتصادية ، فآل ذلك الخلل إلى انهيار اجتماعى واقتصادى وسياسى .

المرحلة الاخيرة

والآن أصل إلى النقطة الأخيرة . إلى المرحلة الثالثة والاخيرة من مراحل المهاجرة اللبنانية . مرحلة ما بعد الاوضاع اللبنانية الجديدة . هل تقف المهاجرة أم تستمر ؟ هل يعود قسم من اللبنانيين المهاجرين أم ينصهرون كلهم فى الاقوام التى نزلوا بين ظهرانيها .

لن يجيب على هذه الأسئلة إلا الوضع اللبنانى الجديد والمهاجرون أنفسهم

إنى أرى القاهرة تتحول إلى مارسيليا جديدة بالنسبة إلى المهاجرة اللبنانية . فى فنادق القاهرة عدد من اللبنانيين لا يقل عن المئة ينتظر الطائرات فى طريقه إلى المهاجر ، وهذا العدد يتجدد كل أسبوعين أو ثلاثة فاذا كانت هذه حالنا والمواصلات ما تزال فى صعوبة كبيرة فما تكون حالنا عند ما تفتح كل طرق البر والبحر والجو .

أرى أن مسئولية إيجاد علاج لوقف المهاجرة ، أو حصرها فى اغتراب طبقة التجار اغتراباً مؤقتاً ، تقع أولا على حكومتنا الاستقلالية الجديدة وثانياً على المهاجرين .

لقد كان فخامة رئيسنا الجليل الشيخ بشارة الخورى واقعيا وصريحا فى ندائه الاخير إلى المغتربين فأطلعهم على نواح عديدة من النواحى الداخلية اللبنانية .

وبعد أن يعدد بعض المشاريع العمرانية التى تحققت يقول فخامته : — « أجل . إننا لا نزال بعيدين عن الكمال . غير أننا قد مشينا خطوات لها قيمتها الاكيدة فى هذا الحقل . وعلينا أن نتم عملنا بمعونتكم لتجهيز البلاد تجهيزاً اقتصاديا شاملا بعد هذه الحرب » .

إلى أن يقول فخامته :

« وإذا اتجهنا بأنظارنا إليكم لمعاونتنا فى سبيل تحسين اقتصادياتنا ؛ فلا نطلب منكم معونة مجانية وإن كنتم مستعدين لاعطائها لمواطنيكم كما فعلتم بالماضى — بل كل ما نطلبه منكم أن تقوم رساميلكم مقام الرساميل الأجنبية . فتفيدون وطنكم من وجهة مادية ووجهة معنوية وتستفيدون بصورة مشروعة مع كل الضمانات التى يقتضيها مثل هذا التعاون بالرساميل وهذا كله فى مقدوركم وإمكانياتكم » .

لاول مرة منذ خمس وعشرين سنة يخاطب المهاجرين مسؤول كبير فى الدولة بلغة العقل والواقع لا بلغة العاطفة المألوفة . فكم بالحرى إذا كان هذا المسؤول هو رئيس هذه الدولة والمسؤول الأول عن مصير الشعب .

أجل . إن فخامة الرئيس كان واقعياً وصريحاً ، والمهاجرون سيكونون أيضاً واقعيين وصريحين فى جوابهم . وأنا كمهاجر عاش خمسة عشر عاما خارج وطنه — يجوب المهاجر اللبنانية متاجراً ودارساً — ثم عاد إلى وطنه ورافقه فى تطوراته السياسية من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ يمكنه أن يمثل تفكير أكثر المغتربين والمهاجرين ويمكنه أن يلخص شروط المهاجرين كى يساهموا فى تجهيز البلاد تجهيزاً اقتصادياً شاملا . وإنى أختصر شروط المهاجرين فى خمسة :

١ — حل مشكلة النقد حلا نهائياً بانشاء مصرف قومى يكون فيه الذهب أساساً .

٢ — تحرير وحماية الموارد الحيوية — الزراعية والصناعية — كالحرير والتبغ والفاكهة .

٣ — عقد معاهدات تجارية على أساس التبادل مع كل الدول ذات العلاقة الاقتصادية مع بلادنا بدون استثناء .

٤ — إيجاد الأمن بكل معانيه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

٥ — إعلان حرية الأحوال الشخصية وتطبيق الأنظمة المدنية المتبعة في البلدان الراقية .

٦ — إشتراك المغتربين في الانتخابات النيابية كي يشعروا أنهم هم أيضاً مسؤولون عن الأوضاع السياسية في البلاد .

على المهاجرين أن يشعروا بمسؤولية إنهاض لبنان وتحريره كما لو كانوا مقيمين في لبنان . إلى الآن كان اللبنانيون في مهاجرهم منقسمين على بعضهم أكثر من المقيمين في لبنان ولم يتمكنوا من القيام بعمل موحد يوجه لبنان المقيم توجيها صحيحاً . إلى الآن لم يجدوا طريقهم اللبنانية الصحيحة .

من الضروري أن يشعر اللبناني المهاجر أن واجبه القومي يقضي عليه بأن يضحي معنوياً ومادياً في سبيل إنشاء وضع لبناني يصلح للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يتطلبها . يعلم المهاجر اللبناني خصوصاً المقيم في بيئات لا تصلح لانصهاره فيها ، أن واجبه نحو أولاده وأحفاده يتطلب هذه التضحية . فكما أنه يعمل ليوفر لأولاده ثروة مالية كذلك يجب عليه أن يعمل ليوفر لهم تراثاً وطنياً .

إن نهضة لبنان الجديدة بل إن تجديد حياة لبنان بكل معانيها سيقوم على مدى التعاون الذي يمكن أن نوجده بين لبنان المغترب وبين لبنان المقيم ، بين إمكانيات الوضع الجديد في لبنان واندفاع المغتربين لتقوية تلك الإمكانيات . فلنوحد كلمتنا في مهاجرنا ولنشجع لبنان الجديد على تأمين شروطنا .

لبنان المقيم لن ينهض إلا بعجز وضعف ، ولبنان المغترب لن يعيش إلا بألم مر ، فلنعمل لإيجاد تفاعل بين هذين اللبنانين لإيجاد دورة

فكرية وقومية وروحية واحدة تقطع الأبعاد والمسافات دون أن تقف حيويتها . وهذه الدورة الفكرية والقومية والروحية الموحدة ستكون أساس حياتنا الجديدة .

وكم يحسن أن تكون مصر الشقيقة ، مصر المضياف ، مصر وعلى رأسها الملك الشاب ، الملك المجدد صور الحياة وأشكالها الراقية ، كم يحسن أن تكون مصر المتوجة بالقوة الفتية مركز نشاط المهاجرين اللبنانيين ، والسوريين عامة ، لمساعدة أوضاع وطنهم الجديدة ولخلق صلة الوصل المتينة بين المقيمين والمغتربين .

الشباب اللبنانى والوطن[1]

. . . واندثر عهد « الدولة العلية » و « عهد السلاطين » مع فجر هذا القرن الحافل بالتطورات المجنحة .

وتوارى شبح العثمانيين عن لبنان ، فخرج اللبنانيون من كابوس قرون مظلمة حولتهم إلى أميين فى فكرهم ولسانهم ، وابتدائيين فى وجدانهم القومى وشعورهم الوطنى .

وأخذت تعابير الضعف والاستسلام : « الأرض للسلطان ، والطريق للسلطان ، والسماء للسلطان ، والمياه للسلطان » ، أخذت كل هذه التعابير المنبثقة من عهد الانحطاط الطويل تقع على الآذان وقع المطارق . إذ أن اللبنانى ، طوال أجيال التقهقر ، فقد إدراكه القومى الواعى ، ولكنه لم يفقد شعوره الوطنى الفطرى المنحدر فى إحساسه من آلاف السنين السحيقة . بدأ الشعب يشعر ، من جديد ، أن ما كان للسلطان يجب أن يصير ملكا وتراثاً للبنانيين . هنا بدأت فكرة الوطن تتجسد من جديد فى أحشاء الفكر اللبنانى والقلب اللبنانى ؛ والفكر المتقد والقلب الشاعر هما دائماً وأبداً : الشباب .

ولكن الوطن فى ذلك الحين كان شيئا مبهما غامضا ، يلتبس بغيره من

---

(١) استكتبت مجلة « الجديد » بعض الادباء اللبنانيين سلسلة مقالات فى مواضيع عامة متنوعة . وقد طلبت من المؤلف كتابة هذا المقال ونشرته فى العدد ١٢٦ .

الأشياء القومية العارضة أو الثانوية البسيطة : فالتخلص من العثمانيين ، وحماية أوروبية ، وانعزال خائف عن كل سياسة سورية أو عربية بصورة عامة ، ونظام ديموقراطي جمهوري لا يعرف عنه اللبنانيون إلا ما تعلموه سطحيا في الكتب وقرأوه في القصص ؛ وسيطرة مسيحية في لبنان كبير نصفه غير مسيحي ، وهنيئا لمن له مرقد عنزة في لبنان ! كل هذه الأفكار والصور المبعثرة والمتنافرة كانت فوضى في رؤوس اللبنانيين ، لأنهم لم يكونوا يدركون بعد ما هي الاسس الحقيقية لبناء وطن ولنمو شعب .

لم تكن في لبنان العناصر القديمة ذات الاختبار والاخلاص ، ولا العناصر الفتية ذات الابتكار والطموح والتوثب ؛ لم يكن كل ذلك موجوداً لانشاء آلة الدولة المؤهلة لتوجيه الشعب ، فيبدأ بتكوين النخبة الضرورية لنهضته وتقدمه وبقائه .

لم يكن في لبنان ذلك الشعب المنتظر أن يكون . شعب يحمل في حضارته خلاصات لمعظم الحضارات العالمية . بل كانت هناك جماعة لبنانية ابتدائية تحب وطنها بالفطرة حبا وطنيا سطحيا ، ينبثق من المناظر الجميلة والذكريات العائلية المتوارثة ، لا حبا قوميا واعيا مدركا : يضم الانسان إلى الأرض وخيراتها فيمتص عناصرها كما يمتص الطفل عناصر الحياة من صدر أمه .

لم يكن للبنانيين إذن أية صورة كاملة عن الوطن ، ولا أية عاطفة واضحة نحو الوطن .

لذلك رأينا اللبنانيين بعد الحرب الكبرى ، بعد خلاص وطنهم من الأتراك ، يندفعون في بحار الهجرة والنزوح قوافل قوافل ، تعد بالمئات والألوف ، تاركين وطنهم وأهلهم ، غير آسفين على شيء ثمين ! . . ولم تسع السلطات خلال جيل كامل لايقاف هذه الهجرة الجنونية ، الجاهلة

اليائسة ، بوسائل سلبية أو إيجابية ، كأنه من الطبيعي أن يكون لبنان منبتا أو مشتلا للمهاجرين ! وكأن مهمة السلطات كانت تسهيل نزوح الشعب عن وطنه ليتشرد في العالم مستعطيا ، مضطهداً : هناك معنويا وهنالك ماديا، مقاسيا أشد الآلام .

الوطن إذن جنين يرتعش في فكر الشباب اللبناني منذ الحرب الكبرى الماضية . أما حان له أن يولد ؟ أقضى عليه أن يبقى في قالب الأحشاء إلى أن يجهض به ؟ وإذا كان هذا الجنين اكتمل وآن له أن يرى الشمس بعين النسور ، ويثبت للحياة ثبات الرواسي ، أيظهر للحياة في قالب ؟ أم طليقا للنمو والتطور ؟

أليس هذا ما يمكن أن يتساءل له شباب لبنان ، المندفع في عواطفه الوطنية المخلصة ، والتائه بين مصالح قومية لم يفسح له المجال لادراك حقيقتها ، وبين سياسة تقليدية خائفة ؟

ظلت هذه الفكرة المتسائلة تعمل زمنا طويلا في ضمير الشباب المستنهض حيويته عاما بعد عام ، دون أن توصلها الأيام والأعوام إلى جواب صريح .

ولقد كان مفروضا في المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والسياسية أن تساعد لتبلور فكرة الوطن عند النشء الجديد ، ولكن هذه المؤسسات قصرت تقصيراً فاضحا في القيام بهذا الواجب الرئيسي : فالمدارس كانت وما تزال بعدد كبير منها ، تقوم بدعاية غريبة مستهجنة للوظيفة وللهجرة ، كأن الهجرة صناعة قومية يجب ألا تموت بل أن يربى حبها مع الأحداث.

والصحافة عموما لم تكن يوما تعالج المسائل من أسبابها إلى نتائجها ، بل تنقسم إلى فرق تمدح وفرق تهجو ، تعليقا على الحوادث الجارية .

والأحزاب التى نشأت ملونة بألوان الطوائف لم تكن إلا لتنمى فكرة الجماعات الطائفية المنعزلة ، أو المهاجمة مهاجمة اعتباطية لا تقوم على العدل الاجتماعى الذى يساوى الجميع فى الحقوق والواجبات .

اما الدولة فلم تكن إلا إدارة تصرف أشغال الطوائف والعائلات والمحاسيب . . وتنقل أشكال الانظمة السياسية الغربية إلى لبنان وتطبقها تطبيقا مشوها ، مهملة الشعب وتثقيفه وتوجيهه ليتفهم معنى الوطن وقيمته المادية والمعنوية .

لم يكن فى لبنان ، لا فى توجيه المؤسسات ولا فى إنتاج الأفراد ، ما يبشر بتطور فى تبلور صورة الوطن الحقيقية ، ولكن العالم بأحداثه وتجاربه هو المعلم الأكبر والموجه الأصدق لكل الشعوب . أليست الحضارة الحاضرة مجموعة من تبادل وتفاعل الأفكار والأحداث والتجارب العالمية ؟

وقفت شعوب المهاجر اللبنانية ، بشعورها القومى الحاد وأنانيتها المتطرفة ، تصد اللبنانيين المنازيح عن أوطانها . ومن كانوا قد دخلوا تلك المهاجر عاشوا غرباء ينظر إليهم نظرة فيها كثير من معانى الكبرياء والاحتقار لمن يشعر ويفهم ، فاضطر اللبنانيون أن يدافعوا عن كيانهم المعنوى والمادى بوسائل مالية ونفوذ شخصى لا يعيشان إلا فترة قصيرة .

بدأ اللبنانيون فى منافيهم المترامية يشعرون بقيمة « الوطن — الام » وبأهمية الانتماء إلى أمة ذات سيادة قومية محترمة فى العالم ؛ وأدركوا أن المرء ، مهما صار غنيا وعالما ؛ يبقى ضعيفاً ذليلا ما لم تحمه أمة ذات سيادة قومية .

وتحول اللبنانيون عن الاقطار ذات الشعوب المتمدنة إلى مجاهل العالم

وأدغالها الهائلة ، فاجتاح تيارهم الهارب ، المستميت فى سبيل المحافظة على مستوى رفيع من الحياة ، مناطق أفريقيا المعروفة والمجهولة ، ومناطق أوسيانيا وغيرها من المنافى المخيفة .

أما فى لبنان فلم تكن الحالة أحسن من المهاجر ، بل كانت تنازعا بين أفراد الشعب على ضروريات العيش الملحة ، وفوضى فى التفكير من كل نواحيه ؛ بل تتمة اتخذت شكلا جديداً ، لعهد سابق طويل ! .

فى هذه الفوضى اللبنانية ، بل فى هذا الجحيم الذى تحترق فيه بقايا الحيوية الضائعة فى شعبنا ، كانت فكرة الوطن تتكون وتنمو عند الشباب اللبنانى الجديد .

بدأت تتكون بمعزل عن كل الهيئات الراهنة والمؤسسات الجامدة ، العائشة بقوة الاستمرار العمياء ، بدأت فى أساسها الحقيقى : فى ضمير الشعب المستيقظ ؛ المفتش عن حقوقه ومصالحه ، والشعب تمثله نخبة الشباب .

والفرق كان كبيراً بين الجنين الجديد ، المرتعش بالحياة فى أحشاء أمه ، يمتص عناصرها امتصاصاً ، وينمو بقوتها وحبها وخصائصها ، بين الوطن القائم على خيرات الارض وسخائها ونشاط الانسان وحبه ، وبين فكرة سياسية تقليدية هرمة ، جامدة ، قائمة على انعزال « الجزيرة المسيحية » المميت . .

هكذا مر جيل كامل والجنين ينمو ولا يولد ، والفكرة الهرمة تنازع ولا تموت !

جيل كانت أواخره معركة فكرية طاحنة بين شعب ناهض ، بدأ أخيراً يدفع بالمفكرين المصلحين كى لا يموت ، وبين ذوى المصالح الشخصية والعائلية والاقليمية والطائفية ؛ وقد وصلت هذه المعركة الآن إلى أن

المبادرة غدت فى أيدى الشباب المهاجم ، المحاول منذ سنوات تقويض الحالة الراهنة القائمة على المؤسسات والشخصيات الرجعية العتيقة .

ولكن ما هى فكرة الوطن التى دارت من أجل إثباتها معركة شعبية لم تنته بعد ؟

فكرة الوطن عند الفئة الضعيفة ، الخائفة ، كانت مزيجاً من الجهل والنفعية والضعف والجمود فى قوالب فكرية متوارثة ، راهنة ، مجردة من كل ثقة بالنفس وكل اعتماد على الذات . فالوطن فى نظرها كان انعزالا لبنانياً يسعى ليجعل من البغض والخوف والاستسلام حدوداً تجعله جزيرة وهمية ، تعيش عيشة شاذة ، لا يمكن أن تؤدى إلا إلى انقراض تدريجى بالمهاجرة وبانحطاط مستوى الحياة .

بل الوطن فى إدراكها هو نوع من المعتقلات الرحبة ، المؤبدة ، حيث لا خلاص للمرء منها إلا بالموت أو بالفرار إلى عالم بعيد ! والوطن فى عرفها الجاهل هو كيان سياسى تقوم على إدارته أشكال سياسية معينة . وقد وهموا ، وهم أطفال فى علم سياسة الدولة والمصالح القومية ، أن الأشكال السياسية هى التى تصون مصالح الشعب وتدبر شؤونه ، لا الرجال المؤهلون بمناقبهم ومواهبهم العقلية النادرة .

وقد اعترى بعض اللبنانيين ، بدعاية هذه الفئة الضعيفة الخائفة ، نوع من الجنون الغريب ، هو من نوع ذلك المجنون الذى كان يعتقد أنه حبة قمح وأن الدجاجة تريد أكله .

أجل ، إن تلك الفئة قد حولت لبنان بجماله ومعاقله الطبيعية التى لا تقتحم ، وبشعبه الذى لم يلن لأربعمئة سنة من الاستعمار التركى الجائر ، نعم هذا اللبنان الأشم ، المنتصب كأنه الرأس المفكر والصدر الحامى

لسوريا ولشبه الجزيرة العربية ، كل هذا اللبنان قد تحول إلى قمحة تخاف أن تأكلها الدجاجة ! . .

أيمكن أن تنمو فكرة الوطن وتتجسد بين تيارات فكرية مريضة ومعدية كالتي كانت تتجاذب اللبنانيين ؟

نعم ! إذا كان الشعب لبنانياً يتوارث العبقرية من أقدم العصور !

إنها قد نمت وتطورت ، وهي الآن تنبلج كأنها الصبح المنفجر من ظلمات ليل حالكة .

لا شك أن ولادة الوطن الحقيقي عند اللبنانيين كانت من أصعب الولادات وأطولها وأوجعها . بل كانت اعجوبة خارقة الطبيعة بعد قرون العقم العديدة .

إن الأرض الصخرية الجرداء والحزون القاحلة الشحيحة ، التي كان يحبها اللبناني القلق حب عاشق مخلص لمعشوقة مريضة تسير إلى حتفها ، تتحول الآن إلى بقاع خصبة ورياض جميلة ! ..

أجل إن الفكر اللبناني قد ولد الوطن ولادة جديدة ، فأدرك الشباب اللبناني أخيراً أن وطنه ليس أرضاً جامدة ، بل هو فكرة طموح تحيا في حالة تفاعلية بين حيوية شعب وموارد أرض سخية . ومتى شحت حيوية الشعب وأجدبت موارد الأرض ، نتيجة لذلك الشح ، أمسى الوطن ، كما كان عندنا ، جثة ميتة ، مهما تكن حبيبة ، لا تنفح إلا بعطور الموت ولا توحي غير صور الفناء .

إن وطن الشباب اللبناني هو نوع جديد من الحيوية اللبنانية التي لم تنضبها سنو الانحطاط الطويلة . وهو انطلاق تاريخي مدهش من هذه الأوكار النسرية الشامخة التي لم يطلها زحف الحشرات ، ولم تصفق قربها أجنحة دجاج لا تطير !

إن فكرة لبنان الجديد تقول : ليس الوطن أوضاعا وأشكالا سياسية، بل هو أرض وشعب ، بل هو موارد ومرافق حيوية يمتصها الشعب كلها لنموه وتطوره واكتمال قوته المعنوية والمادية .

بل الوطن هو الطموح المخزون فى شعب عبقرى ، ينمو مع الزمن والظروف . فاذا أرغم انعكف على نفسه ضمن إمارة ، أو تضاءل فى متصرفية صغيرة ؛ وإن ترك حراً تمركز فى استقلاله السياسى وأطلق نشاطه الاقتصادى والثقافى إلى آفاق تتفق وطموحه ومواهبه المتفوقة ؛ متعاوناً مع الشعوب العربية الشقيقة فى سيرها المشترك نحو السيادة القومية التامة.

إن الشباب اللبنانى يريد استقلال لبنان ويدافع عنه لضرورة اجتماعية راهنة ، ولكنه قد تعلم الآن كيف يأبى عملياً أن يكون الاستقلال مقبرة لطموح اللبنانيين القومى ، أو قالباً يوقف نموهم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، أو منعزلا يعقم نشاطهم الفاعل ، فيمسون مع الزمن اقزاما عقراً يؤلون إلى الفناء .

لن يكون الشباب اللبنانى بعد اليوم وثنياً فى معبد الوطن يؤلّه الأصنام ويقدس الطقوس الجامدة ! لن يكون شعباً ينام على صدر أرض لا يؤمن بكرمها وسخائها . . .

لأن الوطن فى إدراك هذا الشباب هو رسالة الشعب العائش فى حضنه. وكل رسالة تتحول إلى أصنام بلهاء وطقوس متحجرة تدخل فى طور الانحطاط ، فالانحلال فالزوال .

الوطن قبل كل شىء ، هو فكرة حية تنمو ، وتثمر ، وتغذى ، وتحمى، وتدفع إلى الأمام ، إلى السمو ، إلى تحقيق مثل الشعب المتسامية أبداً إلى

العلاء . وهذه الفكرة هي جسم وروح : هي الأرض الفاتحة صدرها ونهودها لحيوية الإنسان الجائعة ، وهي طموح لا يقف ولا ينثني عن النمو والتوسع . وإذا تحجرت هذه الفكرة ضمن أرض جامدة كما تتحجر رسالات الأديان في الهياكل ، آل بها ذلك إلى الجمود ، فالنضوب ، فالموت ! والوطن لا تكونه عوامل سلبية طارئة ، ولا يقوم على عناصر اصطناعية قابلة الزوال ، ولا يمكن أن يعيش على الخوف والشك . أما حدوده فتقررها الأزمنة بعد أن تكون حيوية الشعوب جعلتها أمراً واقعياً ، لذلك يمكن القول أن الوطن هو قوى الحياة البشرية التي تدب عليه ، وهذه القوى هي التي تقرر مصيرها ومصير بوتقتها بطريقة طبيعية تطورية .

إن وطن الانعزال الخانق قد انتهى عهده عند الشباب اللبناني ، واللبنانيون من داخل استقلالهم الإيجابي ، القوي ، المخلص ، سيشعرون أن التعاون مع سوريا هو ضروري لحياتهم ومدى نشاطهم ، وأن الأوطان التي يعمرون في المهاجر النائية يجب أن يعمروها حيث لا يشعرون أنهم غرباء ، بل في ديارهم .

وفكرة الوطن القفص ، الفاتح أبوابه وشبابيكه إلى البحر ، يهرب منها أبناءه ، والمقيم أسوار الخوف والشك على جهات ثلاث ، قد ألحدت مع العهد البائد .

فلبنان الجديد سيسد كل منافذ البحر القديمة ، وسيقيم المعاقل على شواطئه ، وسيفتح قلبه وتخومه لدورة الحياة الطبيعية بينه وبين أشقائه ، ولن يؤثر موقفه هذا على استقلاله ، ولكنه بالعكس سيوقف تيار المؤامرات التي قد تحاك ضده من الداخل والخارج .

الوضع اللبنانى الجديد (١)

« . . . سياسياً يمكن أن يحرر الشعب « بالجملة » أما فكرياً فلا يمكن أن يحرر إلا فرداً فرداً . . . »

معالى وزير لبنان المفوض !

أيها الحفل اللبنانى الكريم !

حفلة لبنانية ، وطنية ، تحت رعاية وزير لبنانى مفوض .

ظاهرة جديدة فى حياتنا السياسية القومية !

قوانا اللبنانية تتبعثر فى أنحاء العالم منذ نحو عقود سبعة ، هاربة من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة فى الوطن ، مفتشة عن بيئات حرة تصلح للحياة !

ولكن الأنظمة المرهقة فى الوطن كانت تلحق بالمهاجرين لترهقهم فى مهاجرهم أيضاً !

فاللبنانيون كانوا مضطرين دفاعا عن جزء يسير من حقوقهم ومصالحهم ، أن يلجأوا إلى ممثلى الدولة العثمانية قديما والدولة المنتدبة حديثاً !

وكان فى ذلك اللجوء الاضطرارى ألم نفسى موجع لايتخلص منه اللبنانى إلا إذا تنازل عن جنسيته وتبنى جنسية جديدة !

أجل ، إن لهذه الظاهرة اللبنانية الجديدة معانى هى أعمق من الرموز

---

(١) الخطاب الذى ارتجله المؤلف فى البطركخانة المارونية فى القاهرة فى الحفلة التى أقيمت بمناسبة عيد مار مارون فى ٩ فبراير سنة ١٩٤٦

والأشكال ، كما قد يتوهم البعض . إن لهذه الظاهرة السياسية القومية قوة تجديدية عظيمة .

فالخراف التائهة منذ عقود سبعة فى صحراء الخوف والأوهام والغموض بدأت تلمح طرق الخلاص .

والقوى اللبنانية العظيمة التى كانت تتجاذبها عوامل اليأس ، والتفريق ، والخوف واللجوء إلى قوى أجنبية تحتمى بظلها الغريب ، المخيف ، النفعى ، ها هى الآن تجد ظل الأم على طفلها والأب على ولده .

الأفكار والأوهام التى كانت تقلق اللبنانيين المغتربين على مصيرهم وتحول نفسيتهم إلى نفسية يهودية تريد أن تحمى نفسها بالفلس والاحتيال على الدهر ، هاهى تتبدد شيئاً فشيئاً ، فيرجع اللبنانى إلى نفسيته الصحيحة : إلى الصراحة الجسورة ، إلى الشجاعة المغامرة ، إلى أنفته التى اتخذت مستوى شموخها من شموخ جبالها العالية .

هذا عهد النفير واليقظة : إنى أرى اللبنانيين المشتتين فى أقاصى العالم يستجمعون قواهم ويتحفزون للنهوض بما بقى فيهم من حيوية . وإنى أسمعهم يتنادون بأن قد دقت ساعتهم ليبذوا الماضى الضعيف ، المستسلم ، ويبدأوا ببناء المستقبل القوى المعتمد على ذاته .

قد يتساءل المرء : وكيف تمكن هؤلاء اللبنانيون المجردون من كل مرجع قومى ، والعائشون بمأمن بين الشعوب ، أن يحتفظوا بجزء كبير من حيويتهم القومية ، وتقاليدهم الراقية خلال سبعة عقود من الاغتراب والتشتت ؟ وعلى ذلك أجيب :

أنه كما يوجد فى الوطن معاقل وحصون يحتمى فيها الشعب فى المعارك الفاصلة ويدافع فيها عن كيانه إلى آخر رجل أو إلى أن تصله نجدة ، كذلك

بين الشعب ، فى مراحل انحطاطه ، شخصيات منيعة ، عاصية على القوى الهدامة ، وعلى كل العوامل المخربة ، هى شخصيات تكون معاقل وحصونا اجتماعية يحتمى الشعب بها فى مراحله الانحطاطية الصعبة . وإذا كنت لا أعدد هذه الشخصيات الحصون فلأننى لا أعرفها كلها ولا أريد أن أعدد بعضها وأترك البعض الآخر .

أيها الحفل الكريم !

أهم شىء فى مستهل عهدنا الحاضر هو أن نفهم أنفسنا ، وأن ندرك حسناتنا وسيئاتنا . فأنا أرى المجتمع اللبنانى منقسما إلى فئتين :

(ا) فئة تظن أن لبنان استقل فانتهت كل المهمات الوطنية ، وليس عليها إلا أن تتمتع بخيرات الاستقلال .

(ب) وفئة تعتقد أننا شعب ضعيف لا يصلح أن يعيش إلا على هامش دولة كبرى .

من المؤسف أن يكون شعبنا مايزال فى هذا الطور الابتدائى من التفكير الاصلاحى . ومن المؤسف أيضا أن لانفرق بين الشكل والجوهر .

فالفئتان تجهلان تمام الجهل حقيقة حالنا ، والمجتمع الذى يجهل نفسه هو مجتمع معرض فى كل ساعة إلى الانهيار من جديد تحت ضغط مفتعل، أو تحت تأثير دعايات مغرضة .

لذلك فانى إجلاء لهذا الوضع الجديد الذى مايزال غامضا ومعرضا للتيارات الفكرية المتناقضة، أقول للفئة الأولى المتسعجلة كى تتمتع وتستثمر:

إن فخامة رئيسنا الجليل ومعاونيه ، بمساعدة فئة واعية من الشعب ومن النخبة الناهضة ، قد ارتجلوا هذا الاستقلال ارتجالا ، ذلك لأنهم وجدوا ظرفا سياسياً عالمياً قد لايسنح فى عشرات السنين .

ولكن هذا الاستقلال السياسى المرتجل ، أيها السادة ، ليس إلا قالباً

يجب أن نصب فيـــه كل قوى فكرنا المتحرر وكل أبداعنا فى التنظيم الاستقلالى الصحيح .

هذا الاستقلال السياسى المرتجل ليس إلا رخصة للشعب اللبنـــانى ببناء استقلاله ، فأين الفعلة ، وأين البناؤون ، وأين المهندسون الاجتماعيون والسياسيون ؟ .

إن الوضع اللبنانى الجديد لم يستهدف إلا تحرير لبنان سياسياً ، ورجال هذا العهد ما يزالون يعملون لاستكمال أركان هذا الاستقلال السياسى ، ولكن هناك مهمة أصعب بكثير ، وعملية أدق وأطول : ألا وهى تحرير الشعب اللبنانى فكرياً وروحياً من الأمراض المزمنة التى تفتك به منذ عقود .

ومسؤولية هذا التحرير لا تقع على الحكومة فقط بل على كل المؤسسات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، بل على كل فرد واع من الشعب . فهل يشعر كل منكم بهذه المسؤلية الملقاة على وجدانه القومى ؟ .

سياسياً يمكن أن يحرر الشعب « بالجملة » أما فكرياً فلا يمكن أن يحرر إلا فرداً فرداً .

أن عملية التحرر القومى تحدث بالطريقة التى تحدث فيها عملية الاستعمار والاستعباد : يحتل المستعمر البلاد كلها بقوة جيوشه فيستعبدها « بالجملة » أرضاً ، وشعباً ، ثم يبدأ بعملية دقيقة وطويلة وهى بناء قلع وحصون يتمركز فيها ، واستعباد أفراد أذكياء وذوى نفوذ كما أنهم مجردون من موهبة الشعور القومى مع الشعب ، ومن الشخصية الأبية التى تنفر من الدنايا ولو مغمورة بالثروة والسلطان ! .

هذه خطة المستعمر ، أما خطة المتحرر والمحرر فهى أن ينتزع أرضه من المغتصب شبراً شبراً وشعبه من المستعبد فرداً فرداً .

ان نتحرر من ماضينا الضعيف قبل أن نعيد ثقة كل لبنانى بنفسه وبمصيره إلى قلبه .

وما لم نرمم معالم الحياة فى الوطن : فنجدد الحياة فى مواردنا الحيوية الزراعيـة ، ونستثمر كل مرافقنا الحيوية ، ونعيد الشعب إلى صدر أمه يمتص حيويتها ويتغذى وينمو ويقوى ويأبى مغادرتها كما يأبى الطفل الفطام ، مالم نقم بكل ذلك لن نـكون حررنا وطننا من العوامل الهدامة !

إن الاستقلال السياسى غير المرتـكز على مجتمع متحرر ، قوى ، مادياً ومعنوياً ، يسقط لأول صدمة .

أما الشعب المتحرر ، الواثق بنفسه ، المسيطر على موارد حياته ، فان المستعمر يبتعد عنه ، لأن عملية استعباده تـكون خاسرة ، ومتعبة !..

* * *

أما الفئة اليائسة ، الفاقدة كل ثقة بنفسها وبشعبها فانى أجيبها :

قد يجوز لكل شعب فى العالم أن يفقد ثقته بنفسه إلا شعبنا نحن الصغير : فانه قد برهن فى مراحل تاريخه أن القوى الفـكرية والروحية ، بعدد قليل من المواطنين المتفوقين والسباقين فى الحضارة الانسانية ، تقدر أن تصمد لأقوى الزعازع وأن تقف فى وجه أعظم القوى الجامحة !

لقد كان وطننا منذ القدم ملتقى التطاحن بين الشرق والغرب ، وكان شعبنا مختبر مدنيات الغرب والشرق ، بل كان دماغنا ، العريق فى نشاطه ، بوتقة تنصهر فيها كل المدنيات ، فتغذى شخصيتنا الاجتماعية دون أن تتمكن من القضاء عليها .

وفى أدق الحالات وأصعبها ، وقت كان الغرب البيزنطى فى تضعضع وانهيار ، والشرق العربى الشقيق فى أقوى انطلاقه وأجلى عبقريته ، لملم السوريون الموارنة عناصر قواهم الفـكرية والروحية من ميادين الصراع

الهائل بين الروم المقاتلين بتراجع، والعرب المهاجمين بانتصار، ودفعوا بتلك القوى إلى المعاقل الحصينة، إلى جبال لبنان!

ولم تكن تلك الفئة، المتحصنة فى جبال لبنان لتحمى تقاليدها ومعتقداتها، جامدة أو مترددة خائفة؛ فقد تنكرت للبيزنطى المستعمر وهو من دينها؛ ورفضت أن تكون آلة فى يده ضد العربى الشقيق وهو من غير دينها؛ بل آخت العربى وعقدت معه المحالفات، ثم قبلت لغته واستعربت، ثم اختلطت بالعناصر العربية فأعطتها من حضارتها العريقة وأخذت من عزمها وبأسها؛ وهنا تم انصهار جديد فى هذه البوتقة، وفى هذا الدماغ اللبنانى العجيب بقابلية هضمه.

فى كل هذه المراحل التى قطعها لبنان، من الفتح العربى إلى أواخر العهد العثمانى الجائر، لم يطلب اللبنانيون نجدة غريب، ولا وصاية قوى ولا انتداب مستعمر!

ولم تبدأ حالة الانهيار فى النفسية اللبنانية إلا بعد مؤامرة أوروبا وتركية على لبنان، تلك التى أدت إلى خلع آخر أمير لبنانى شهابى رمز السيادة القومية.

وكل هذه الروحية الانهزامية اليائسة، القابلة بأن تكون حياتها على هامش حياة الشعوب الحرة، قد نشأت فى عهد «دولة القناصل»، و «دولة القائمقاميتين»، و «دولة الانتداب الأخير»!

إن الذين يقولون أن لبنان القديم كان تحت ضغط اسلامى لم يقرأوا التاريخ ولا تبصروا فيه، بل تاريخ بلادهم كان الدعايات الأجنبية المغرضة.

أريد أن أعلم فى أى وقت من الأوقات كان لبنان فى خطر من المسلمين، وتحت ضغط المسلمين؟! وأى متى، بعد أن تعاقد لبنان مع معاوية، جرب

المسلمون العرب أن يفتحوا لبنان أو يخضعوه لسلطانهم المباشر ؟

وأى متى هاجم المسلمون السوريون لبنان ليوقعوا بأهله ؟ أتقولون سنة الستين ، بين الموارنة والدروز ؟ إن سنة الستين هى وصمة عار على أوروبا لا على اللبنانيين .

إن سنة الستين كانت تمهيداً أوروبياً لانتزاع لبنان وبلاد الشام كلها من أيدى العثمانيين .

أى منطق يقبل بالتسليم بأن المسيحيين اللبنانيين كانوا تحت ضغط المسلمين فى الوقت الذى كان يضطر الأمراء الدروز والمسلمون أن يتنصروا كى يتمكنوا من حكم لبنان ؟!

وتنصر الشهابيين واللمعيين هو برهان ساطع على ذلك !

* * *

أيها الحفل الكريم !

ها ان لبنان ، بعد أن قطع أقسى مراحله التاريخية التى دامت قروناً ، يظهر اليوم بوجهه الحقيقى : شقيق مخلص لهذه الشعوب العربية الناهضة بقوة وعزم . وها الشعوب العربية تصفق له وتشجعه بعد أن تنكرت له فى عهد ضعفه واستسلامه . وهذه الأقطار العربية لا تطلب من لبنان إلا أن يكون شقيقاً مخلصاً ، واقفاً معها سداً منيعاً فى وجه الاستعمار لصيانة مصالحه وحقوقه ، ومصالحها وحقوقها معاً .

هى ترى فيه شقيقاً عبقرياً تريد أن تقوى عبقريته فتستفيد منها ، وينتفع هو أيضاً .

أيها اللبنانيون !

لو كان لى سلطان على عواطف اللبنانيين لجمعتها كلها فى مصادرها

وعطلت كل تمنياتها الخاصة ، ودفعتها بقوة لتغمر هذا اللبنان الناهض بأعجوبة من تحت بلاطة ضريحه ، والممزق بقوة وشجاعة كل أكفانه !

لو كان لى سيطرة على الغرائز البشرية لأوقفت رغباتها القاهرة وسلطت قوى الإنسان اللبنانى كلها على عوامل الشر لتشفيها أو لتعقم أمراضها .

لو كان لى سيطرة على مطامحكم لحولتها كلها إلى مطمح واحد : وهو جمع قوانا المادية والروحية فى الوطن والمهاجر ودفعها لخلق شعب متحرر من كل القيود الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، شعب صالح لحياة متمدنة راقية !

إن الوضع اللبنانى الجديد هو واسطة لبناء حياتنا الجديدة فهيا إلى البناء أيها اللبنانيون الحقيقيون !

الحالة الراهنة الجامدة وقوة استمرارها

صخرة في طريق لبنان (١)

تحديد الحالة الراهنة :

لاشك أن الموضوع غريب عن المواضيع التى نعالجها بصورة عامة . وما أعلنته لشخص إلا ورأيته حائراً ، يسائل نفسه عما عساى أن أقول فى بحث كهذا ، كما رأيته مفكراً فى مايمكن أن يعنى هذا الموضوع الغريب.

الحقيقة هى أنه لا يمكن أن يتبحر فى مواضيع كهذه إلا من نزل ميدان الإصلاح الاجتماعى — السياسى واصطدم كل يوم بصخور «الحالة الراهنة» فشج رأسه مرات عديدة ؛ ثم جرب أن يوقف « قوة الاستمرار » فكان كمن يقف فى طريق « صخر حطه السيل من عل »

الحالة الراهنة هى الأوضاع الاجتماعية — السياسية القائمة فى شعب من الشعوب .

هى معاقل اجتماعية — سياسية ستراتجية ، تتمركز فيها كل القوى المحافظة المتمسكة بالبقاء كما هى .

« وقوة الاستمرار » هى الحركة التى تسير بالعادة والتقليد . فقد تقف أحياناً كل القوى الدفاعة التى تسير نظاما من الأنظمة ، ولكن ذلك النظام يبقى سائراً زمنا طويلا «بقوة الاستمرار» ولا يقف إلا إذا تكوّن نظام

(١) محاضرة ألقيت فى القاهرة .

آخر أقوى منه . هناك مثل لبنانى بسيط يقول : « الحجر مطرحو قنطار »: أن نظاما فاسداً ، ثابتاً فى محله ، تعود الناس أن يروا مظاهر قوته وبطشه ، يصعب عليهم ، إذا هو وصل إلى حالة وهن وضعف ، أن يدركوا تلك الحالة . وإذا أدركوها صعب عليهم أيضاً أن يهاجموها . لأن ذلك النظام مهما يكن خاثراً وفاسداً ، فهو نظام قائم على كل حال ، وقد يبقى مدة طويلة سائراً بقوة الاستمرار .

وقوة الاستمرار سواء أكانت فى حالة نافعة أم مضرة ، سواء أكانت سلبية أم إيجابية ، سواء أحفظت نظاما يجب أن يهدم ، أم أبقت نظاما يجب أن يستمر للمنفعة العامة ، فهى قوة عظيمة لايستهان بها . ولا يثبت نظام فى العالم إلا إذا رافقه الاستمرار أجيالا وقرونا .

والحالة الراهنة وقوة استمرارها هى أنواع :

منها ماهو حى ومتطور ببطء ، ومرافق سير المدنية العامة ، وهذه حالة عادية موجودة عند أكثر شعوب العالم الحرة ، ولا يتناولها هذا البحث ، بل يعطى صورة اجمالية عنها ، لنقدر أن نرى الفرق بين حالة راهنة جامدة ، وأخرى حية ، متطورة ، تفعل فيها سنن الاجتماع فعلا طبيعياً .

ومنها ماهو جامد منذ أجيال وقرون ، وهذا النوع هو موضوع هذه المحاضرة :

التطور والتجدد سنة اجتماعية :

إن الحياة الاجتماعية الانسانية تجدد صورها وأشكالها ومعانيها بقوى فكرها وروحها المتفجرة دائماً من داخلها . فكما أن الحياة تتجدد فى جسم الانسان الحى ، كذلك الحياة تتجدد فى الجسم الاجتماعى الحى .

ولكن الجسم الاجتماعى مركب تركيباً دقيقاً من ملايين العناصر ،

ومسير تسييراً دقيقاً بملايين العوامل ، لذلك تكون عملية تجدد الحياة فيه عملية أصعب بكثير منها فى جسم الفرد . ولهذا تحتم أن تسهر على تطور الجسم الاجتماعى أجهزة اجتماعية سياسية إذا هى اختلت فى تنظيمها ، وتوافقها وتجانسها وتوجيهها ، للقيام باعباء مسؤلياتها ، وقف الجسم الاجتماعى عن التطور والتجدد فآل إلى الجمود ، فالتحجر .

من سنن المجتمعات البشرية إذن أن تكون فى تطور دائم وتجدد مستمر:

تدفع الأجيالُ الأجيال ،

وتهضم الأفكار الأفكار ،

وتحل العقائد محل العقائد ،

وتتغلب التقاليد على التقاليد ،

وتمشى المدنية فى تقدم مطرد ،

نحو مثلها العليا الإنسانية الراقية .

هذه سنة المجتمعات السائرة سيراً طبيعياً :

تسيطر على أرضها فتستدر مؤونة عيشها ،

وتسيطر على فكرها وروحها فتستوحى غذاء حياتها .

وهذا التطور الدائم من جيل إلى جيل ،

بل من عام إلى عام ،

بل من برهة إلى برهة ،

لايفسح المجال لتحجر العادات والتقاليد والعقائد ، لتمسى أخيراً طقوساً وثنية جامدة ، لايحطمها إلا نشوء مدرسة إصلاحية جديدة ، ثائرة !

أما إذا ألمت بالمجتمع كوارث جامحة ، ومصائب أليمة ، جمدته أجيالا وقروناً فى أفكاره وتقاليده وعاداته ومعتقداته واختباراته واكتشافاته ،

ثم ولد المجتمع العبقرى جيلا جديداً يريد أن يحرك ، من جديد ، دولاب التطور ليبدل صور الحياة وأشكالها ومعانيها العتيقة فهناك المصاعب ، وهناك التطاحن ،

وهناك العراك بين مذهبين :

مذهب « الحالة الراهنة » و « قوة استمرارها » ، ومذهب المجددين !

إن هذه المرحلة من العراك الداخلى عند الشعوب المتمدنة هى أصعب المراحل وأدقها فى تاريخها ، بل هى مراحل فاصلة بين الحياة أو الموت : قد يكمن الموت فى طفرة المذهب الجديد وانتصاره على القديم ، كما أنه قد يكون سر النهضة فى محافظة المذهب العتيق وتمكنه من الاستمرار ، مدركا كيف يأخذ دماً فتياً من المذهب الجديد ليتجدد .

يقول الكاتب الاجتماعى الكبير Gustave le Bon فى كتابه « الحضارات الأولى » :

« إن الشعوب لاتحيا إلا بشرط احترام عاداتها وتقاليدها وهكذا ، ولا تتقدم إلا بشرط معرفة التخلص — فى الوقت الموافق — من من نير هذه العادات والتقاليد إذا صارت عديمة الجدوى أو ضارة .

« وما أصعب حل هذه المشكلة التى يظهر للقارىء تناقض وجهيها ،

« فانها من أصعب المشاكل التى تتطلب الحل .

والتاريخ مملوء بأنقاض الأمم التى زالت لأنها لم تعرف كيفية الوصول إلى هذا الحل .

« إننا نرى عند درس مختلف مراحل الحضارة أن لدرجة قابليـــة الشعب للتفكير أكبر أثر فى حياته . فاذا ضعفت هذه الدرجة منعته كل تقدم وحكمت عليه بالزوال أمام الشعوب التى تعرف أن تتقدم .

وإذا زادت عن الحد أفقدته كل تآلف وتماسك وأوردته الهلاك ،

لاأظن أن هناك نظرية اجتماعية فلسفية أدق وأصح من هذه النظرية، وأعتقد أنها أحسن نظرية يمكننا على أساسها أن ندرس حالتنا الراهنة ونقرر إذا كان يجب تقويضها أم المحافظة عليها !

حالتنا الراهنة نتيجة أجيال الانحطاط :

ألا تسلمون معى بأن لبنان طيلة أربعة قرون من السيطرة العثمانية كان منعزلا عن تطور المدنية العالمية من الناحيتين الاجتماعية والقومية ، ومجمداً فى قوالب أفكاره وعاداته وتقاليده ، ومعرضاً لتقبل كل الأوهام والخرافات السياسية ، شأن الضعيف المنعزل عن حقائق الأمور يتأثر بكل العوامل ، سواء أكانت قوية أم ضعيفة ، سلبية أم إيجابية ؟

ثم ألا تسلمون معى أيضاً بأن لبنان كان خاضعاً ، فى الجيل الأخير ، لنظام استعمارى مخيف بتنظيمه ، جرب بكل الوسائل الثقافية والاقتصادية والسياسية أن يقضى على اللبنانيين كشعب متمدن ، ذى شخصية تاريخية خاصة ، وان يحوله نهائياً إلى جماعة بشرية ضعيفة ، مفككة ، مشوهة فى عناصر تكوينها ، لا حياة لها إلا فى حماية دولة غربية قوية ؟ !

إذاً سلمتم معى بكل ذلك ، فأنى أسألكم : أية « حالة راهنة » تريدون أن ينتج عن أربعة قرون من الجمود العثمانى الملتف على لبنان كالأفعوان المجرم ، وعن جيل أخير من التخريب الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لحيوية شعب صغير ؟ !

من يمثل الشعب ؟ :

الشعب تمثله مؤسسات اجتماعية وسياسية ، وشخصيات فذة ، قوية ، وانتاج فكرى وروحى صحيح ، منبثق من أعماق نفسيته ! فهل بقيت

مؤسسات بعد طغيان العثمانيين وجورهم ؟ وهل نشأت مؤسسات فى عهد الانتداب واستبداده ؟

وإذا كانت المؤسسات كلها تزعزعت فهل يعقل أن تكون بقيت شخصيات سليمة ؟ أما الانتاج الفكرى والروحى فهو أبعد ما يكون عن الوجود : لأن شعباً يضطر أن يكدح طوال أجيال وقرون ليحصل قوته بالكد والضنك ليحافظ على حياته ، ان شعباً يجبر أن يكذب ويحتال ويراوغ ويمالق ويخاتل كى يرد يد الظالم عنه .

ان شعباً وجد فى حالة كهذه زمناً طويلا لا يمكنه أن يعطى أى إنتاج فكرى وروحى صحيح ! . . .

من المفروض فى المؤسسات والشخصيات التى تمثل الشعب أن يكون الشعب معين قواها القومية دائماً ، وأن يكون الشعب المصعد المعنوى الذى يرفع شخصياته الفذة ، والمصدر الوحيد لكل نفوذ تمارسه مؤسساته

وقد تمر الشعوب المتمدنة فى أطوار انحطاطية ضعيفة ، ولكنها لا تضيمها فى جوهرها إذا بقيت المؤسسات والشخصيات القومية تستمد حيوية الشعب لتتغذى ، وتحافظ على اتصالها القومى المتين بذلك الشعب .

أما إذا انقطعت أوصال العلاقات بين الشعب وممثليه ، وبدأت المؤسسات والشخصيات ، محافظة على كيانها ونفوذها الشخصى ، تتسول قوتها وزعامتها من مصادر غريبة عن شخصية الشعب وإرادته ، إذ ذاك يبدأ التفكك الاجتماعى القومى المريع !

إذ ذاك يبدأ تسيير تلك المؤسسات والشخصيات طبقاً لارادات تتنافى مصالحها حتما مع مصالح الشعب القومية ، وحينئذ تنشأ «حالة راهنة» هى من أحط وأفظع ما يمكن أن يحدث عند شعب متمدن خانته الأقدار فاستضعف ! . . .

فقدان الزعامة الشعبية هو سبب هدام :

هذه هى الحالة الراهنة التى تكوّنت فى لبنان بعد نفى الأمير بشير الشهابى الكبير رمز الزعامة القوية وبعد تقويض الامارة اللبنانية بمؤامرة تركية — أوروبية !

فان الشعب انقسم إلى معسكرين ، وتجزأت الزعامة وأمست فوضى بين الأمراء الثانويين والمقدمين والمشايخ ، حتى طمح أخيراً كل مختار قرية أن يكون زعيما .

هذه الحالة التى نشأت فى لبنان لم ينشأ لها مثيل فى أى قطر من الأقطار العربية . فان لبنان ، رغم تقدمه الثقافى فى الخمسين سنة الأخيرة ، استمر فى الانهيار سياسياً وشعبياً حتى كاد يجحد كل ماضيه القوى ويمسى من صعاليك الشعوب الطفيلية الملتصقة بكيان الإنسانية ،

بينما نرى فى مصر الشقيقة أن الزعامة تتطور تقدمياً من عهد محمد على الكبير وابنه ابراهيم باشا مزعزع الامبراطورية العثمانية ، إلى المغفور له الملك فؤاد الأول رمز التجدد والنهضة المصرية الحديثة ، إلى حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ، الملك الشاب ، قبلة أنظار الأمم العربية ومكمل رسالة أبيه فى التجديد والنهوض بمصر العظيمة.

إن فقدان الزعامة فى لبنان هو الذى سبب تقهقره السياسى رغم تقدمه العلمى . وإنه من سوء طالع سورية بدون شك أن لايكون المغفور له الملك فيصل تمكن من تثبيت ملكه . لأن شعباً مفككا هذا التفكك وغير قادر على النهوض مع زعيم شعبى جديد ، لايضع حداً للفوضى فيه إلا النظام الملكى الثابت الذى يقود الشعب بتؤدة إلى الخير والفلاح .

عناصر الحالة الراهنة فى لبنان :

نستنتج مما تقدم أن «حالة راهنة» منحطة نشأت فى لبنان خلال عهدى العثمانيين والفرنسيين .

فما هى العناصر الرئيسية التى كوّنت هذه « الحالة الراهنة » التعسة ؟

إن أركان «الحالة الراهنة» فى لبنان كانت فى نظرى ستة :

(١) الجهاز الادارى التركى المنحط الذى تحول إلى هيكل الدولة اللبنانية ،

(٢) المؤسسات الاكليركية ونفوذها السياسى المكتسب بعد انهيار الامارة اللبنانية ،

(٣) المؤسسات التعليمية الأجنبية .

(٤) أكثر العائلات اللبنانية المتزعمة التى انحطت إلى استجداء نفوذها من الأجنبى .

(٥) الشخصيات السياسية الضعيفة التى ظهرت بعد الحرب الكبرى وهى ربيبة المستعمر ، جاء بها مع الحملة الاستعمارية أو رباها فى لبنان تربية ذليلة خاصة ،

(٦) المفوضية الفرنسية ومؤسساتها الاستعمارية ، وهى كانت القيمة والمدافعة عن « الحالة الراهنة »

تأخر النهضة القومية فى لبنان وسورية :

كان ينتظر أن يحدث فى لبنان وسورية بعد سنة ١٩١٨ ماحدث فى بولونيا وفنلندا وتشكوسلوفاكية وغيرها من الحركات التحريرية المنظمة ، بل كان ينتظر أن يحدث ذلك قبل دخول الحلفاء البلاد السورية لأن الجيوش التركية كانت خائرة ومضعضعة ، والسلطات التركية كانت فقدت كل أمل بالنصر ، وكانت بدون شك مستعدة أن تقبل كل مساومة مع

قوة سورية ـــ لبنانية منظمة . ولكن الوعى القومى كان مفقوداً والزعامة الحقيقية غير موجودة ، والاستقلال لم يكن إلا حلماً صبيانياً لا يرتكز على أساس . وأظن أن محاولة المغفور له الملك فيصل كان فيها كثير من الارتجال وحماس الشباب ، وقليل من التنظيم والتروى والدبلوماسية .

بلغ العقم فى لبنان إلى أنه لم توجد هيئة علمانية مؤهلة أن تمثل لبنان فى مؤتمر الصلح ، فاضطر شيخ اكليريكى فى السبعين من عمره أن يتحمل مشاق السفر ليعرض قضية لبنان بقدر ماتسمح له معارفه السياسية البسيطة .

أما الذين ساهموا فى تشكيل هيكل الدولة اللبنانية فكانوا إما محامين درسوا فى فرنسا وأتقنوا المرافعة باللغة الفرنسية والثغثغة الاصطناعية ، وإما صحفيين جاءوا من المهجر لينالوا مكافأة على سبهم الأتراك فى الحرب الكبرى وعلى خدماتهم للقناصل والسفراء الفرنسيين . وإما موظفين قدماء فى لبنان ومصر ؛ ولم يكن بينهم من كان مؤهلا للقيام بنهضة إصلاحية حقيقية .

آلت الحالة ، بعد استتباب النظام الانتدابى إلى أسوأ ما كانت عليه أيام العثمانيين :

« فالحالة الراهنة ، المنحطة تشكلت تشكيلا جديداً ، وعوضاً عن أن تقوم عليها دولة مهدمة ، مفككة ، كالدولة العثمانية ، فقد قامت على حمايتها وتقويتها دولة غربية منظمة تنظيما حديثاً .

فى لبنان لم يصطدم الوضع الجديد بأية مقاومة ، لأن لبنان كان غارقاً فى أحلام انسانية الغرب ومثاليته ، أما فى الداخلية فقد كانت المقاومة سياسية صرفة تستعين أحياناً بالمظاهرات الغوغائية ، وقد وصف عالم اجتماعى عظيم هذا النوع من المقاومة السياسية بقوله :

«إن الفورة السياسية أمر تافه إذا لم تكن مرتكزة على نفسية متينة .. أما الوطنية القائمة على تقاليد رجعية ، فهي شيء عقيم ولو أدى إلى الحرية السياسية».

بعد أن تجددت أشكال الحالة الراهنة فى لبنان والشام تجديداً انحطاطياً لعيناً بدأت عمليات التخريب الاجتماعى والاقتصادى والسياسى :

المدارس : تخرج طلاب الوظائف ، يريدونها بأى ثمن من الكرامة والشهامة وعزة النفس ، وتخرج طلاب الهجرة من بلاد تعلمهم مدارسها أنها فقيرة ، ضعيفة ، تعسة ، محاطة بالأعداء من كل جانب ولا مستقبل لها ، وتخرج المخانيث يتهادون فى مقاهى بيروت وفى مصايف الجبل متأبطين كتب موسيه وجورج ساند و « الغلامة » وقصائد الفسق والفجور .

والحالة الراهنة : بدأت كالتنين تلتهم كل شيء من موارد ومرافق : المؤسسات العائلية المتزعمة كانت كقط يلحس المبرد تفنى ذاتها وبلادها بنفسها والبرهان على ذلك هو أن كلا من المتزعمين فى البلاد وصل قبيل هذه الحرب إلى حالة اقتصادية تعسة وأكثرهم رهنوا أملاكهم أو باعوها للمصارف الأجنبية .

والمفوضية الفرنسية : كانت تسير هذه الأعمال التخريبية وتراقبها بقساوة الرتيلاء التى تراقب فراشة تتخبط فى شباكها (أى شباك الرتيلاء)

ماذا يتكون ضد الحالة الراهنة :

فى حالة كهذه حيث تتشوه كل المظاهر القومية التى تمثل الشعب : وهى أتعس حالة يمكن أن تنحدر إليها أمة من الأمم ، فى حالة كهذه يجب الرجوع حتما إلى الشعب !

ولكن الواضح لمن يتعمق فى درس المجتمع اللبنانى والسورى أن الشعب أيضاً مس فى جوهره ، وتصدع فى مكامن قوته ومخازن انطلاقه !..

فقد دعى منذ ١٩٣٢ دعوة قوية ، دعوة صارخة مستغيثة للنهوض ولتكوين زعامة شعبية جديدة ، يلدها من صلبه السليم ، ومن عبقريته الخالدة ، فلم يلب تلبية صحيحة !

ذلك لأن الثقافة المائعة ، الثقافة المزعنفة ، الثقافة الكتبية المحدودة والمكتبية الخاملة ، والاتكالية الضعيفة قد أفقدتة كل ثقة بنفسه ، وبمصيره !. ذلك لأن كل المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والسياسية والدينية ، التى تمثل الشعب ، استسلمت نهائياً للأمر الواقع ، واقع «الحالة الراهنة» الشقية، والدولة القيمة عليها ، ولم يبق اى مرجع يقدر الشعب أن يلجأ إليه ليوجد حلقة الاتصال والاستمرار .

كان على الشعب اذن أن يبنى كل شىء من جديد ، أن يحارب فى جبهات عديدة وهو أعزل من كل سلاح ، وكل أعدائه مسلحون ! . .

فلم يقدر أن يلبى دعوة النهوض لانشاء وضع جديد ، بل انتظر الظروف المؤاتية .

بدء النهضة الفكرية فى أوائل هذا القرن :

كان الشعب بعد الحرب الكبرى بحاجة إلى نهضة فكرية نظرية أولا ، تكون تمهيداً لنهضة قومية واقعية منظمة . وقد ظهرت هذه النهضة الفكرية فى المهاجر اللبنانية والسورية .

بدأ الريحانى منذ فجر هذا القرن ، يكتب فى الولايات المتحدة ، وأخذت كتاباته تتسرب إلى البلاد السورية ولكنها تلاقى اضطهاداً من قبل رجال الدين ، فتصل بصعوبة حتى إلى الخاصة . ثم ظهرت كتابات جبران بأسلوبها الشعرى الجذاب ففتحت طريقها فى أوساط الطلاب والطبقة المتعلمة رغم الحرب الشعواء التى شنها رجال الدين على هذه

الكتابات المتطرفة فى زعمهم . وظهر الدكتور خليل سعاده فى البرازيل فنظم حملة صحفية على الاستعمار كان لها أثر فعال فى الوطن وفى المهاجر كما أن ـــ الاتحاد اللبنانى ـــ فى مصر عمل بنشاط خلال الحرب الكونية الماضية وأرسل الأستاذ السودا بعد الحرب لينظم حركة تحريرية فى لبنان فلم يوفق الأستاذ السودا فى عمله من الناحية التنظيمية ، فيئس ووقف فى بدء طريقه الوعرة .

ولكن كتاباته بقيت تفعل فعلها فى نفوس الناشئة ، ولو كان وقف السودا أعماله على الكتابة كما فعل الريحانى وجبران والدكتور سعاده لكان اكثر توفيقاً ومنفعة منه فى تنظيم « حزب المحافظين » ثم حزب « الجبهة القومية » ثم الانسحاب من الميدان وقت كانت البلاد بأشد الحاجة إليه .

فالسودا الخطيب والسودا الكاتب ، والسودا الوطنى المخلص كانت تنقصه فكرة الاصلاح الاجتماعى ، وكان يفتقر إلى أكثر عناصر الزعيم الشعبى وأكثر مواهب المصلح المنظم !

أما الريحانى وجبران ، والدكتور سعاده فقد كانوا فولتير وروسو ومونتسكيو النهضة اللبنانية ـــ السورية.

وتلامذتهم المنتشرون فى الوطن والمهاجر اللبنانية ـــ السورية كلها هم الذين كونوا نواة النهضة القومية الحقيقية ، المنبثقة من صميم وجدان الشعب .

الشعب يستفتى :

وراحت كتابات هؤلاء السباقين تتغلغل فى اللبنانيين والسوريين رغم المقاومة المنظمة فى المدارس وفى المؤسسات الرسمية . النار متى وجدت كل عناصر اشتعالها لا تطلب رخصة لتشتعل . والمستعمر مهما

تنظم وضغط لا يمكنه أن يراقب كل فكر وكل عاطفة عند شعب قرر فى اللاوعى أنه يريد أن يحيا لا أن يموت !

دم جديد فى الحالة الراهنة :

مرت اثنتا عشرة سنة على الحالة الراهنة المتجددة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢ ، استعملت المفوضية الفرنسية خلالها أنجع الأساليب لترمم وتقوى حصون الأفكار العتيقة ، الهرمة !

فلقحت الجهاز التركى القديم بأقوى العناصر التى كانت تقدمها المختبرات الفرنسية الاستعمارية : اليسوعية ، ومؤسسات المفوضية السرية وغير السرية والعائلات اللبنانية العريقة بخنوعها وزعنفتها وتربيتها الانهزامية الخاملة .

وقوت المفوضية كل العناصر والمؤسسات التى تؤلف أجزاء رئيسية من الحالة الراهنة : كل من يريد وظيفة يجب أن يحمل شهادة حب وإخلاص وغرام وأمانة وطاعة عمياء لفرنسه . وهذه الشهادة لا تصلح إلا إذا حملت ختم مؤسسات أكليريكية معينة ، وعائلات لبنانية معينة .

هذه الحركة المنظمة أحدثت دورة حيوية فى هيكل الحالة الراهنة فجددت قواها وأعطتها دفعة قوية من « قوة الاستمرار » .

بدء الصراع بين مذهبين :

هما مذهب الحالة الراهنة العتيقة ومذهب التطور والتجديد . مذهب الجمود فى القوالب العتيقة حتى الموت ومذهب البعث والنشور والحياة .

ولكنى الفت نظركم إلى نقطة هامة وهى انى لا اعنى برجال المذاهب العتيقة أولئك الذين تعدوا أعماراً معينة ، كما انى لا أعنى بالمدرسة الجديدة أولئك الذين يؤلفون جيل الشباب بأعمارهم ، فهناك كهول وشيوخ وهبوا

حيوية التجدد والتطور ، وهناك فتيان وشبان جمدوا فى أفكار وعقائد أجدادهم ، وهم بعد على مقاعد المدرسة . فالمسألة هى مسألة إحساس وإدراك ، لا سنوات كثيرة أو قليلة .

فى سنة ١٩٣٢ وصلت الحالة فى لبنان إلى أسوأ مايمكن أن تصل إليه :

أزمة خانقة فى المهاجر كلها ،

مواسم شبه ميتة لاتفى بأتعابها ،

نقد لايعرف له قرار ،

والاحتياطى عند الشعب أنفق كله لسد عجز اثنتى عشرة سنة من النهب والتخريب ،

والحالة الراهنة مستتبة على صدر الشعب كأنها بلاطة الضريح ، ممسكة بكل موارده ومرافقه وأتعاب يومه كأنها اخطبوط ذو أشداق ألوف وبراثن ألوف : يمتص من جهة بقساوة الرتيلاء المجرمة ، ويخرب ويوجع من جهة بشراسة المسوخ المفترسة .

والشعب منهوك القوى فى نفسه وجسده ، لم يُعط فرصة ليفكر ، ليستجمع قواه ، لينتحر أو لينهض : هو يكدح لربح قوته اليومى كأنه محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، وهو يرى أوصاله تتمزق بالمهاجرة الانقراضية فلا يعى أين يوجه أفكاره وعواطفه .

والمدارس الأهليـــة والأجنبية تقذف بالمخانيث والمسوخ :

أولئك يثغثغون على أرصفة بيروت كأنهم مخاليق شاذة ،

وهؤلاء ينضمون إلى المؤسسات الاستعمارية ليساهموا فى الوليمة المجرمة !

كان الشعب بين أمرين :

إما الموت مصلوباً على شجرة ، ومسوخ تمتص دمه ، كما يحدث أحياناً عند اكلة لحوم البشر فى أفريقية ،

وإما أن يتحرك ويغامر ببقايا العزم والحيوية الراسبة فى أعماق كيانه .

قرر الشعب اللبنانى أن لايموت !

وبدأت منذ ١٩٣٢ تتألف هيئات جديدة هدفها إيقاظ قوى الشعب الحية وتنظيمها ودفعها لمهاجمة الحالة الراهنة .

ومن سنة ١٩٣٢ إلى ١٩٣٩ تشكلت فى لبنان هيئات عديدة إذا لم تكن كلها متساوية فى العنف ضد الحالة الراهنة فهى كلها ليست معها .

لست هنا فى مجال المفاضلة بين هيئة وهيئة ، ذلك يتطلب بحثاً طويلا خاصاً وتحليلا عقائدياً طويلا . فأنا أود خوض الموضوع بصورة عامة ، كأنى لاأنتمى إلى هيئة معينة ، لأنى أنظر الآن إلى الهيئات التى تؤلف المدرسة الجديدة كأنها هيئة واحدة . وهى مضطرة أن تشكل جبهة واحدة وإلا بقيت تستثمرها المدرسة العتيقة لمصالحها الخاصة . والحالة الراهنة ستبقى مستمرة طالما بقى الاختلاف قائماً بين الفئات الجديدة ، فلا تقدر هذه الفئات أن تفرض نفسها لتتغلغل فى عناصر الحالة الراهنة ، أو أن تقوِّض هذه الحالة . وكم تأملت فى الخلاف القائم بين الفئات الجديدة فوجدت أكثره مرتكزاً على أفكار جامدة ، وناتجاً عن سوء نية أفراد ، لاعن تطاحن مبادىء . إنه خلاف يشبه الخلاف القائم بين الطوائف المسيحية ، أسبابه الرئيسية هى الوثنية القائمة فى الأشكال والطقوس لا فى الجوهر المجرَّد ، ولا فى الروحية الطامحة إلى التحرر !

يمكن أن تكون لفئة لبنانية عقيدة ضيقة ، خائفة ، متحفظة ، لا مبالية بما يجرى حولها فى الأقطار الشقيقة ،

ويمكن أن تكون لفئة أخرى فلسفة اشتراكية عالمية هى من أشهى الأحلام الانسانية ،

ويمكن أن تكون لفئة ثالثة فكرة عربية شاملة تحلم بوحدة البلاد العربية وحدة تامة ،

ويمكن أن تكون لفئة رابعة فلسفة سورية قومية تؤمن بأن الشعوب القاطنة لبنان والشام وفلسطين وشرقي الأردن تؤلف علمياً واجتماعياً وجغرافياً مجتمعاً واحداً وشعباً واحداً :

هـــذه مذاهب فلسفية ، على المستقبل أن يغربلها ويصفيها ويحقق منها الأنسب ، وإن النصر هو للحركة السورية القومية الاجتماعية لأنها الوحيدة المرتكزة على العلم والمتسعة لجميع حياتنا السورية

ولكن هل يمكن أن نختلف نحن الفئات الجديدة كلنا على :

(ا) أن في لبنان مجلسا نيابيا لا يليق بتمثيل شعب راق كالشعب اللبناني ،

(ب) وأن في لبنان نظاماً طائفياً وأقطاعياً يضغط على الشعب ويسيره طبقاً لمصالحه الطائفية والاقطاعية ،

(ج) وأن في لبنان تشريعاً طائفياً يجزىء الشعب الواحد إلى دوائر مغلقة تجري ضمنها تيارات لا قومية ،

(د) وأن في لبنان دوائر عامة يجب تطهيرها من الجهلة والمحاسيب والخونة ،

(هـ) وأن في لبنـان موارد زراعية مهملة ، وإمكانيات اقتصادية مجهولة ، ومرافق حيوية مقيدة بقيود استعمارية ورأسمالية ،

(و) وأن في لبنـان مؤسسات وشخصيات يجب إيقافها عند حدها وأقصاؤها عن الميدان السياسي ؟

هل يمكن أن تختلف هذه الفئات الجديدة على احداث إصـلاح من هذا النوع ؟

لو تعقلت قليلا هذه الفئات الجديدة لتفاهمت على مسائل إصلاحية

هامة بدون أن تفرض كل منها عقيدتها الفلسفية على الأخرى . إن عناصر التفاهم بين الفئات الجديدة هى أقوى بكثير من عناصر التفاهم القائمة بين العناصر العتيقة ، ومع ذلك نرى العناصر القديمة عرفت كيف تتكتل لتحافظ على كيانها ومصالحها ضد القوى الجديدة ، بل عرفت كيف تستغل الفئات الجديدة !...

وتنافر المؤسسات الجديدة هو الذى يجعل الوضع الجديد فى تقلقل ، ويضطر فخامه رئيسنا الجليل أن يجامل ويراعى بعض الشخصيات الرجعية التى لاتستحق إلا الاحتقار .

الحالة فى لبنان اليوم هى سيئة جداً من الناحية الداخليـة . فالمدرسة القديمة التى قادها فخامة رئيسنا الجليل بأعجوبة إلى الاستقلال السياسى ، هى عاجزة كل العجز عن القيام بحركة إصلاحية شاملة تتناول الاجتماع والاقتصاد والتشريع والسياسة القومية الصحيحة ،

والأحزاب الجديدة هى فى حالة تنافر وتباين فى مبادئها وأهدافها ، والجو لايبشر بامكانية إنشاء جبهة قوية من فئات الشباب . وإذا انتظرنا إلى أن يتغلب حزب واحد على هذه الأحزاب كلها فقد تكون المسألة طويلة جداً ، فما العمل ؟

الحقيقة هى أننا نقدر أن نقول أن لبنان وكذلك سورية قد أخفقا فى إحداث نهضة إصلاحية شاملة، ولولا الظروف السياسية العالمية لكانت ذهبت كل آمالها برفصة من قائد فرنسى مستبد ظالم !

المدرسة القديمة عاجزة !

والمدرسة الجديدة غير متجانسة وغير قابلة التفاهم ، وهى تكاد تكوّن حالة فكرية راهنة ليست سوى اخفاق تام للعناصر الوطنية الجديدة .

التنافر المستحكم بين فئات الشباب هو نتيجة التربية المتنافرة ، المتباينة ، المتناقضة التى تلقتها الناشئة فى مدارس أجنبية طائفية طبعتها بطوابع مختلفة .

إنها حالة تنذر بثورات دامية وبتطاحن داخلى لن يعقبه إلا الخور والضعف !

كيف يمكن أن نعالج هذه الحالة الانحطاطية المركبة : حالة « الوضع الراهن » الذى ما يزال مستمراً ، وحالة الفئات الجديدة التى لم تعرف إلى التفاهم والتضامن سبيلا ؟

كان الشعب سابقاً أمام مشكلة واحدة : هى إنشاء قوة شعبية تزحزح الحالة الراهنة وتحل محلها ، أو تختلط بها وتسيطر عليها فتعطيها من أفكارها الجديدة وتأخذ من نفوذها الموروث. فعوضاً عن أن تؤلف قوى الشباب جيشاً منظماً يهاجم الحالة الراهنة فى ظرف من الظروف ويزعزعها نهائياً ، فقد خلقت هذه القوى مشكلة جديدة : وهذا منتهى الانحطاط والتفكك فى شعب من الشعوب !

بعد جهاد نحو خمسة عشر عاما تؤول الحالة فى صفوف الشباب إلى التقهقر !

إنها لحالة تعسة جداً .

لاشك أن انهزام الفئة الانتدابية فى الانتخابات الماضية قد نقى الحالة الراهنة فى كثير من عناصرها الموبوءة ، خصوصا من الناحية التنفيذية . فقد اقصيت عن ميدان السياسة اللبنانية شخصيات كانت تسمم المجتمع والحكومة بأفكارها ونفوذها .

ويمكننا أن نقول أن عناصر الوضع الجديد ، رغم ما فيها من الضعف والمحدودية فى التفكير الاصلاحى والانتهازية والنفعية ، رغم كل ذلك قد أصبحت صالحة فى كثير من الأمور للتعاون مع فئة جديدة متحررة .

فاذا أقصيت عن الميدان السياسى بعض عناصر الوضع الجديد الرجعية والجاهلة وحلت محلها عناصر فتية متحررة ، شاعرة برسالتها الاصلاحية ، إذ ذاك يمكن أن نرى الحالة الراهنة يتحرك دولابها فى سبيل التقدم . هذا ممكن وقريب إلى التحقيق . ولكنى أتمنى فى أول درجة أن تؤلف « جبهة شعبية » من الأحزاب الفتية تخوض المعركة الانتخابيةالقادمة بقوة هائلة . وتقضى على الوضع العتيق ، فلا تستبقى منه إلا أفراداً لا يتعدون أصابع اليد نظراً لما لهم من الفضل على « العهد الجديد » ، ولضرورة بقاء حلقة اتصال بين الماضى والمستقبل .

لو عدلت فئة من الفئات الجديدة غرورها واعتدادها بنفسها ،

ولو عادت فئة ثانية إلى وجدانها القومى وضحت قليلا من أحلامها بثورة عالمية اشتراكية ، قد لا تحدث إلا بعد مئة سنة .

ولو كانت فئة ثالثة أكثر مرونة ودبلوماسية ، لو عادت كل فئة إلى ضميرها القومى ودرست مصالح الشعب الملحة وحقوقه الضائعة والميادين العامة التى يعبث فيها الفساد منذ أجيال ، لو فكرت هذه الفئات الجديدة مليا لأهاب بها ضميرها إلى التساهل ، إلى نبذ الشكليات والتمسك بالجوهر فقط ، إلى التخفيف من غلواء العقائد الفلسفية النظرية والرجوع إلى الواقع الصارخ ! (أى الرجوع الى الفئة الرابعة) انظر صفحة 76

ولا أشك أبداً فى أن فخامة رئيسنا الجليل هو من مشجعى تأليف جبهة قوية من الفئات الفتية ، وهى التى تنقذ الشخصيات المخلصة من ضغط الفئات الرجعية .

أما إذا لم يعرف الوضع الجديد كيف يستعين بالقوى الفتية الناهضة ، ولم يحصل تأليف « جبهة شعبية » ، فان مهمة الإصلاح ستكون أصعب بكثير مما يتصور البعض :

إن «الحالة الراهنة» بكل مؤسساتها الموبوءة ، وبكل عناصرها الضعيفة الجاهلة ، العاجزة ، ستبقى وتستمر إلى أن يقدر لحزب من الأحزاب الفتية أن يتغلب ويقضي عليها نهائياً .

يجب علينا أن نفهم أن «الوضع الاستقلالي الجديد» في لبنان ليس في حقيقته إلا مرحلة تمهيدية لانقلاب داخلي أساسي. والشعب يتوقع حدوث هذا الانقلاب في المعركة الانتخابية المقبلة . فاذا كانت نتائج الانتخابات الآتية تثبيتاً للوضع الداخلي بكل عناصره ، فان ذلك سيوقع الشعب في حالة يأس وقنوط ، لأنه لن يجد فرقاً كبيراً بين انتداب مستعمر ، واستقلال عاجز .

الصهيونية بدعة شاذة

الصهيونية هى بدعة شاذة . وشذوذها متعدد ، ومناقض للحقوق الانترنسيونية وللتطور البشرى الطبيعى : فهى اتفاق فئات بشرية موزعة فى أمم العالم ، ولها كل الحقوق فى تلك الأمم ، على اقتطاع جزء من وطن معروف ومسلم به واقعياً وعلمياً ودولياً ، وجعل ذلك الجزء وطناً لها . كان ذلك ممكناً ، حربياً ، وقت أن كان العالم لا يزال فى أطوار تنازع الأوطان ، وفى أزمنة كانت الإنسانية لم تصل فيها بعد إلى حالة استقرار ، تمكنت من طبع كل شعب بطابع أرضه وسمائه . أما اليوم ، فى عصر تشتعل فيه حرب عالمية طاحنة ، تعبىء كل القوى البشرية العسكرية ، ولا تتمكن هذه الحرب إلا من تعديلات بسيطة ، ثانوية ، فى حدود بعض الأوطان ، فقد غدا من العبث التفكير باصطناع وطن كامل وانتزاعه من أصحابه الحقيقيين دون أى مبرر ، خصوصاً والوسائل هى ادعاءات باطلة لا تستند لا إلى قوة حربية ولا إلى حقوق انترنسيونية .

عمل اليهود يناقض التطور البشرى :

ولو أمعنا الفكر فى محاولة الصهيونيين الشاذة ، لتساءلنا مستهجنين : كيف تمكن اليهود من البقاء منعزلين فى تفكيرهم وعواطفهم وأمانيهم عن الأمم التى عاشوا بين ظهرانيها طوال هذه القرون الطويلة ؟ ! . .

الانسان المهاجر ، بطبيعته الانسانية ، السليمة من كل مرض اجتماعى

أو نفساني ، ينجرف مع المجتمع الذى يولد فيه ، ويحب الأرض التى أبصر عليها النور والسماء التى غمرت نشوءه ونموه . وإذا بقى بعض الآثار لذكريات أرضه الأولى فى الجيل الأول ، فان أجياله المقبلة كفيلة بمحو تلك الآثار .

هذه هى الهجرات الأوروبية إلى أميركا قداندمجت ، بطيب عنصرها ، بعضها ببعض وكونت الشعوب الأميركية . وهذه هى الهجرة اللبنانية — السورية ، فانها بفطرتها السليمة ، صاقبت كل البيئات والأمم الأميركية واندمجت بها مع أول جيل من هجرتها . حتى أن الذين ولدوا فى لبنان وقرروا الحياة نهائياً فى أميركا ، تراهم يخلصون لأميركا وينشئون أولادهم نشأة أميركية ، مطبقين بسجيتهم المخلصة نواميس التطور البشرى .

هؤلاء هم الفرنسيون فى كندا ، وقد احتفظوا بدون قصد ، مؤكداً ، بلغتهم وعنصرهم ، ووطنهم الأول ما يزال موجوداً ومن أعظم الأوطان فى العالم ، فهل منهم اليوم من يدعى أن له حقوقا فى وطن أجداده ، وهل منهم من يضمر الكره لكندا ويعمل لخير فرنسة وهو مواطن كندى ؟

كل الشعوب الراقية ذات السجايا الصحيحة تمشى ، بدون قصد ، مع سنة التطور الانسانى العام ، إلا الفئات اليهودية الموزعة فى العالم ، فقد شذت شذوذاً غريباً مجرماً ، وهى تحاول القيام بعمل غريب مجرم ! .

إن هذا العمل مجرم من أربع نواح ، فهو جريمة ضد سنن التطور الطبيعى ، وضد الأمم التى يعيش اليهود بين ظهرانيها منذ مئات السنين ، وضد الأمة التى يريدون قهراً الاستيلاء على جزء من وطنها ، وضد أنفسهم أيضاً ، لأنهم بتصرفاتهم الشاذة طوال القرون قد خلقوا رأيا عاماً عالمياً ضدهم لا يسهل محوه من الأذهان !

ماذا يدعى اليهود ؟

يدعى اليهود أنهم شردوا من أرضهم بالقوة . فهل هم وحدهم من شرد من أرضه فى التاريخ القديم ؟ ! وإذا جاء كل شعب شرد من أرضه يطالب بالعودة إليها بعد آلاف السنين لاضطر العالم أن يخلق جغرافية جديدة ، وأن يعمل لحل مشاكل لا تنتهى بمئات من السنين . هذا ادعاء لا يمكن أن يأخذه شعب راق وعادل بعين الاعتبار ، بل هو مجرد ادعاء يكون سبباً لارتكاب الجريمة . وادعاء اليهود الثانى هو أنهم مضطهدون فى العالم ! . وهذا الادعاء قد جاز على كثير من الشعوب والافراد فى العالم فعطفوا ، جهلا وظلماً وعدواناً ، على الصهيونية .

ألا يجب أن نسائل أنفسنا قبل أن نحكم : لماذا اضطهد اليهود فى العالم ؟ !

اضطهد اليهود لأنهم يتمتعون أينما وجدوا ، خصوصاً فى هذا العصر ، بكل الحقوق المدنية والسياسية ، ولا يقومون بواجباتهم نحو الأمة التى يعيشون بينها ، بل يصرفون كل جهدهم لخدمة الانترنسيونية الصهيونية العاملة لاصطناع وطن يهودى !

إذن لم يكن الاضطهاد اللاحق بهم إلا رد فعل لسوء تصرفهم ، ورداءة سلوكهم وخيانتهم كمواطنين .

فالاضطهاد كان إذن قصاصاً عادلا لهم ، فكان عليهم أن يرتدعوا عن أعمالهم التخريبية ويعودوا عن غيهم .

الدولة العنصرية والدينية :

لما تهاجم أوربا الأمم العربية يكون سلاحها الرئيسى أن الأقطار

العربية ماتزال تقدس العنصرية وتخضع للأنظمة الدينية أوالتى يسود فيها النفوذ الدينى ، وذلك فى زعمهم طور متقهقر قطعته الامم الحديثة الراقية. لا بد لنا من أن نسلم بأن الانظمة الشبه دينية ما تزال تسير بقسم كبير شؤوننا القومية . ونسلم ، حسما للجدل ، أن الامم العربية تبالغ فى تقديسها العنصرية العربية . ولكننا نقول لاوربا وللعالم المتمدن كله : ان الامم العربية فى نهضتها الحديثة تعمل بنشاط سريع لتحرر أفرادها وتتحرر هى بدورها من النفوذ الدينى فى الدولة ولتتخلص من العنصرية ، وتوجه النشء الجديد توجيهاً اجتماعياً انسانياً . ولكن ما بال أوروبا تنتقد من ناحية هذه الحالة وتعمل من ناحية أخرى لتحقق أفظع بدعة دينية وعنصرية ، ألا وهى الصهيونية ؟

العنصرية المتحجرة السرطانية والدين المتعصب المتصلب هما عنصرا الصهيونية الوحيدان . وكل المحاولات المتمدنة ، التى جربت أن تذيب هذه العنصرية الصهيونية فى شعوب العالم ، قد باءت بالاخفاق ، بل زادت تلك العنصرية تحجراً وادعاء . وما تزال خرافة « شعب الله الخاص » تفعل فعلها دينياً وعنصرياً بأرقى الفلاسفة اليهود فى العالم ! وما تزال خرافة « أرض الميعاد » صنماً يقدسه كل يوم خمسة عشر مليوناً من اليهود العائشين فى أخصب وأغنى أقطار المعمور تحميهم أرقى الأنظمة وأعدلها !

إنه لغريب ان لا يشجب العالم المتمدن كله إدعاءات الصهيونيين ! إن الولايات المتحدة تحرم على كل مواطنيها مغادرة أرض الوطن أكثر من أربع سنوات والا يفقد المواطن حقوقه فى وطنه ويخسر جنسيته الأميركية ! فاذا كانت أربع سنوات من البعاد عن أرض الوطن تكفى لخسارة كل الحقوق ، فهل يجوز لأميركا أن تدافع عن ملكية فرد هجر

أرضاً منذ ألفي سنة ؟ إنه لتناقض غريب لا يمكن أن ننسبه إلا إلى نفوذ الصهيونية المتغلغل في أجهزة الدول التي تناصر الصهيونية ! ...

الصهيونية خطر مداهم

كل محاولة نظرية لاظهار بطل ادعاء الصهيونيين لاتجدى عملياً أي نفع ، لأن الصهيونية لم تعد إدعاء نظرياً يمكن دحضه بنظرية حقوقية أو علمية ، بل ان مشروع الصهيونية أمسى واقعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . فاليهود لم يتكلوا على الرأي العام العالمي ليقر إدعاءاتهم ، بل هم الآن يلهون العالم بصورة عامة ، وسوريا وكل الأمم العربية بصورة خاصة ، بمناوراتهم وتصريحاتهم ، بينما يتسربون إلى فلسطين بكل الطرق الممكنة كي يزداد عددهم وتتوطد أقدامهم عاماً بعد عام . إن عددهم في جيل واحد صعد من أربعين الفاً إلى المليون وحالتهم تطورت من فئة قليلة وفقيرة ، تعيش كما يعيش سكان سورية الجنوبية من التجارة والزراعة والصناعة اليدوية البسيطة ، إلى شعب يعد مليوناً من الناس ، آتين من أرقى الأمم الأوربية ، يحملون أحدث العلوم والاختراعات وأضخم الرساميل ، وأخبث النوايا . إن الصناعة الأوروبية بكل إمكانياتها العلمية والمالية والتجارية والحربية والاستعمارية قد انتقلت إلى فلسطين ، فهناك مليون من الناس هم جنود ورأسماليون واستعماريون في وقت واحد ! واليهود يقدرون ، وذلك ظاهر في كلامهم وتصرفاتهم ، إن عددهم الحاضر وسرعة نموهم بالمواليد والصناعة الجبارة التي أسسوها إلى الآن ، تكفل تحقيق خططهم الاستعمارية في سورية الطبيعية كلها ومن ثم في باقي الأقطار العربية .

إن من يتأمل ملياً سحنة الاثنين ، ويقابل بينهما ، يتأكد ان فى ملامح العربى من العزم والانفة والفروسية والمغامرة والاستعداد مايكفل الانتصار ، فى النهاية ، على ذلك اليهودى المتهدم ، والمتهدل والبائخ . فان العنصر اليهودى قد شاخ من الدوران على نفسه فكريا وعنصريا . وقد ظهر ذلك واضحاً فى ملامحه التعبة ، المجردة من عزم الرجولة ومغامرة الشباب .

ولكن هناك الآلة الحديثة التى يتقن اليهودى صنعها واستعمالها فيحطم كل عزم وكل روح فروسيه بالحديد والنار . وإذا لم تسرع كل الدول العربية إلى إعداد عدتها الآلية فان الدويلات السورية كلها ستنحل مع الوقت ، تحت الضغط اليهودى الاقتصادى أولا والسياسى ثانياً . وتتبعها على طريق الانحلال تلك جميع الدول العربية الأخرى .

ولكن ، على كل حال ، كما أن اليهود لا يتكلون على القوى الخارجية ومساعدة الدول الأجنبية إلا فى الدرجة الثانية ، كذلك يجب على السوريين وسائر العرب الا يتكلوا أولا إلا على نفوسهم . هذا هو واجبهم الأكبر أمام الخطر الصهيونى المتعاظم .

من المؤكد أن تجاسر الصهيونيين على تنفيذ مؤامراتهم المجرمة ، بمحاولة اقتطاع جزء من الوطن السورى العربى لتكوين وطن لهم ، هو دليل على اعتمادهم تنفيذ سلسلة من المؤامرات كى يعرقلوا كل تعاون عربى يمكن أن يكون خطراً عليهم . فلا يمكن أن يغامر الصهيونيون فى إقامة وطن اصطناعى مغتصب ، فى هذا العالم العربى العظيم ، المستنهض كل قواه عاماً بعد عام ، إلا إذا أضمروا نوايا وتصاميم تخريبية مخيفة

ولكن مؤسسة « الجامعة العربية » جاءت لتكون حصاراً عربيا جباراً يضرب حول هذا الكيان الصهيونى المجرم .

ومقاطعة الصناعة الصهيونية هى أول الوسائل التنفيذية التى ستشعر الصهيونيين بحراجة موقفهم، وتفهمهم أن هذه البلاد العربية الناهضة بأربعين مليوناً ، والمتوثبة إلى انتزاع حقوقها القومية من كل مغتصب ، لن تتراجع أمام مليون صهيونى مهما بلغت قوتهم واكتمل تنظيمهم وعظمت صناعتهم وارتقت علومهم التكنيكية . إن فى الروح العربية من القوى المخزونة مايقدر أن يسحق قوات أكبر بكثير مما يمكن أن يعبىء الصهيونيون .

ألوان لبنانية [1]

من أيام الرغد القديم

جمال الحياة فى الريف أنها مواسم :

لا « يكدن » المرء هناك ، كما فى المدينة ، من الصباح إلى المساء ، على مدار السنة ، فى عمل يومى واحد ، يحول الجسم إلى آلة ذات حركة واحدة ، ويقيد الفكر فى نقطة واحدة هى الاشراف على تلك الحركة ؛

بل تتواتر المواسم ، وتتباين مداتها ، وتتنوع أعمالها ، حتى يصبح كل موسم فصلا مستقلا ، وفناً خاصاً ، له ميزاته وألوانه .

نصف الخريف الثانى هو بدء النشاط فى حياة الريف الجبلية . فالشتاء قد اتخذ من هذا النصف الحائر ، بين الصحو والمطر ، مساعداً متطوعاً للمباشرة بأعمال الحراثة .

فى هذا الوقت تكون الكروم والحقول مجردة من كل أثمارها ، والطبيعة تعبة من مواسم العطاء : تريد أن تخلع ثيابها وتطلق عريها للفضاء :

يدغدغ أعضاءها بالرياح ،

ويطهر أبدانها بالأمطار والثلوج الآتية ،

حتى إذا أدبر موسم تروضها فى أواخر الشتاء ،

---

(١) كتبت فى ربيع ١٩٤١ ، فى « الخرائب » وهى ضاحية من ضواحى قرية المؤلف، وقت كان متخفياً عن السلطات العسكرية الاستعمارية

أقبل الربيع يحوك وينمق جلبابها الجديد ، ليقدمها لزوار الربيع غانية تختال بأثوابها الجديدة ،

تفتح أكمامها وتفتر ثغورها لمن تربع فى أحضانها

* * *

وتكون أيام الفلاحة والزرع ناشفة ، لاتجذب الكثيرين إلى الكروم والحقول .

يأتى الفلاح غالباً وحده ، ثم يتبعه أحد أبنائه الكبار ، معاوناً فى العمل.

ولكن مبدان الطبيعة فى الريف لايمكن أن يخلو تماماً من مظاهر الفن والجمال :

فقد ترى غالباً ، عند الظهر ،

غادة ريفية مرتبة الهندام ،

تتنقل على الطريق كأنها الحجل ،

ترمق قوامها بين حين وآخر بنظرة مختلسة ،

تحمل الزوادة إلى أبيها وأخيها .

وإذا أمعنت النظر فى نوافذ البيوت المجاورة الطريق ، أو فى سطوحها،

ترى فتى يراقب ذهابها وينتظر إيابها ،

حتى إذا عادت ، بعد برهة ،

تشاغل قرب الطريق ، على مرأى منها ،

لتراه وتصبحه ؛

ثم يتبادلان كلمات لايعرف سرها إلا من راقب السهرات المقبلة .

* * *

يلى موسم الحراثة والزرع موسم الزيتون وله المتعب ، الممل .

والزيتون عند رب العيلة حبُ الزيت المبارك ،
تمطره الزيتونة بسخاء عندما تهز فروعها ،
أو ترتجح بين سواعد الرياح .

تؤلف العيلة فى هذا الموسم فرقة العمل ، فيساهم فيه الكبير والصغير ويكون جامعاً بين الجد واللعب .

وإذا طفت جوار القـــرية ، متخفياً ، مجاوراً الكروم سمعت كل الألحان القروية : من نتف الأغانى ينثرها الفتيان والصبايا بدون نظام أو هدف ،

إلى العتابا المسرعة ، يرشقها الشبان رشقاً على مسمع أو على نية ! ..

وإذا تنصتَّ جيداً تسمع ، بدون شك ، بعض الأنغام الناعمة ، الخافتة ، ترسلها الفتيات إلى بعيد أو قريب ، على « متون الهواء » أو « أجنحة الطيور » .

بعد موسم الزيتون تعترى طبيعة الجبل فترة من الراحة بعد العطاء ، فتنصرف إلى تخزين جهد الإنسان ونشاطه . فالارض تتقبل الحراثة مرات عديدة وتخزن قوى الطبيعة فى أحشائها المباركة ، والأشجار تنتظر الكرّام مع فأسه ومنجله ومقصه ، فهى تريد أن ينقيها من زوائدها المزعجة كى لايزحمها الربيع وشمسه المنعشة قبل أن تنق . هى بشوق إلى الربيع يسرِّب الحرارة إلى أحشاء حيويتها فتتعامل قوى الحياة المخزونة فى نفسها ، وتتحرك للظهور فى مناطق الطبيعة كلها .

ولعل موسم الشتاء الحقيق هو موسم السهرات العامرة ، الصاخبة ، «والصبحيات» العائلية الهادئة .

نار حطب التوت فاكهة الجميع ، ولعب الورق تسلية الأكثرية مع مايرافقه من قهوة ونبيذ وكستناء وجوز وتين ناشف «وتزريك» الغالبين.

أما روح السهرات وسحرها الخفى فليس فى هذا كله ،
بل فى شخصين هادئين ،
يتظاهران بالاهتمام بألعاب الناس وأفراحهم ،
ولكنهما يجران حديثاً صامتاً ، متواتراً ،
حديثاً لايحوكه الكلام العادى ،
حديثاً أبلغ من كل مايمكن أن يبدعه الفكر بواسطة اللسان .
هو تفاهم وتبادل عواطف ، لايدرك معانيها إلا أصحابها ، أو من رافقها بدقة منذ أيامها الأولى .
لفتة تنبه الفكر والعواطف كلها ،
تتبعها بسمة تقول فى صمتها :
« لايهمنى إلا أنت » .
وقد تأتى إمالة نظر خفيفة ، هازئة ،
نحو شخص معين تعنى أشياء كثيرة ،
بل تصرح أن : « لاتشغل فكرك بهذا فهو بعيد عن قلبى » .
هى جالسة قرب أبيها ، تظهر كأنها تتحزب له ويهمها انتصاره فى الورق ،
وفى الحقيقة لايهمها إلا تحزب قلبها لهذا الجالس قبالها ، وهما يتفاهمان بلغة لاتفهمها إلا القلوب .

* * *

ويتوارى (فبراير) ومستقرضاته المهاجمة ، المنتقمة بدون أن يكون لها ثأر على العجائز (١) ، ويلوح الربيع فى (مارس) الميال إلى نعومة (ابريل) واخضراره ، الناقم على جيرة فبراير وأطواره الشاذة .

(١) يقال فى لبنان أن فبراير يقترض ثلاثة أيام من مارس كى يقضى على العجائز .

وهذا الربيع بكل مخزونات جماله، وكل متاحف أوديته وسفوحه وروابيه.
يطل بالبراعم ،

براعم التوتة التى تدرك فى ذهولها الأبكم أن « النحيل »(١) بدأ عند العجائز ، وأن الدويدات ستطلب غذاء للحرير .

براعم الدوالى وعشاق التبولة ينتظرون بفروغ صبر موسم الحلقات العابقة بالفتوة والحب والجمال. موسم تخاطف الورقات تحمل طعم الأنامل، موسم تبادل النظرات تحمل حباً بريئاً وخفة طاهرة ،

وأوراق الدوالى إذا تخاطفها الفتيان والفتيات فى حلقاتهم المرحة ، لايحرم منها أهل البيت ، بل يأكلونها بلذة . فان محشى الدوالى ، وهو مخضب بالزيت المبارك ، أو محشو بالعصافير الصغيرة ، يعد فخرة الزوادة إلى الحقل البعيد .

وقبل أن يمر موسم هذا الورق المحبوب تبدأ مواسم ربيعية أهم وأخص. ولكنها مواسم سرية وتبقى سرية إلى أن تتوارى فى أسرارها :

هى مواسم « التلاويح » ،
بواكير الأثمار على السواء ،
يجنيها الفتى اليافع أينما وُجدت .
حتى أشجار الخورى والمختار والمتزعم
لاتسلم من الخطف والنهب والتعدى .
بل تخضع لقانون الحب الأوّل .
كل ذلك فى سبيل ابتسامة رضى ،

---

(١) «النحيل» هو إعداد بذر الحرير فى أمكنة تحفظ فيها الحرارة فى حالات معينة إلى ن تصير دويدات صغيرة فتعطى للفلاحين كى يربوها .

أو نظرة عطف من الرفيقة الصغيرة ،
الحائرة بين الولودية والفتوة ،
بين موقف الجد والهزل من أصحابها .
« التلاويح » أينما وجدت :
فى قصور الأحبار والبطاركة ،
أو فى الحقول البعيدة ،
تقدم ضحية للحبيبة الفتية .
وهى لا تتجشم إلا الأكل والابتسام ،
وقد تكون البسمة ساخرة
من صاحب البستان
وسارق الأثمار معاً ! . . .

* * *

موسم القز

موسم القز فى الجبل هو الابن الحبيب ، البار .

يبدأ فى أيدى العجائز وينتهى بالقطاف ، فى أيدى العيلة كلها ، من كبيرها إلى صغيرها ، إلى أصدقائها وجيرانها .

ولا يفرح رب البيت من كل قلبه ، إلا عندما يرى أكداس الشرانق تنتظر الذهب الرنان .

ولا ترى الحرائر والأجواخ والمآكل الطيبة ، وحلويات بيروت إلا بعد بيع موسم القز .

كل مواسم السنة لاتشوق إلى الشغل بنشاط وحرارة واهتمام خاص كما تشوق تلك الدويدات الصغيرة ، المتحركة أبداً ، تطلب الغذاء والسرعة

فى النمو لتصل إلى بيتها المثالى الصامت ،

إلى سجنها ، لتهبنا أجمل ملبس وجده الإنسان ،

ولتثقل خصور آبائنا بالذهبيات العديدة .

وقد تربع موسم القز فى ابان الربيع ، أجمل الفصول ، كأنه يعرف قيمته الغالية .

وعند ما تختال التوتة باخضرارها الممرع على التلال والسفوح المرشوشة بالحجارة ، وعلى الحروف الفقيرة إلى المياه ، يقرأ المرء أفكارها فى قضبانها الطويلة ، وفى قوامها القوى : فهى تتحدى أية شجرة بستانية يمكنها أن تحل محلها ، وتصرح بجرأة قائلة : « لولاى لبقيت هذه الحزون والحروف جرداء قاحلة ، تنتابها الأشواك المضرة وتمر بها المعز مرة طريق »

والتوتة تفاخر أشجار الأرض كلها وتطلبها إلى المنازلة من شطئان البحر الحرى إلى مساقط الثلوج المجلدة . وهى تعتز أنها ترافق اللبنانى فى كل شبر من أرضه . تحتل الأرض فى كل جنب منها وتقول بفخر : « أنا بنت الأرض الأصيلة ! حفظت أجدادكم من العوز فى الأزمنة القاسية . ولم يجاورنى فى بعض مناطق إلا الزيتونة والدالية والتينة . أما بنات هذا العصر المفنج فكانت تيبس لأول لفحة من الشمس . حافظوا على لانى أحمل فى شرايينى كل ذكريات أجدادكم المجيدة ! »

فكما ينظر الجبليون إلى الزيتونة كشجرة مقدسة ترعرعت فى أرضهم مع أجدادكم الأول ، فانهم ينظرون إلى التوتة كمورد رئيسى لعيشهم . ولا يقل حبهم لها عن الزيتونة المباركة .

صحيح أن الزيتونة والدالية دخلتا فى طقوسهم الدينية واكتسبت تلك المسحة المقدسة ، ولكن التوتة صارت جزءاً من حياتهم ، وغذاء لمواشيهم ، وحطباً لمواقدهم ، وحبلا يشدون بها خيامهم وعرازيلهم فى الصيف .

فانى اتجهت وكيف تطلعت رأيت أثراً لأحد محاصيل التوتة السخية .

وثقة رب البيت بمحصول التوتة هى أقوى من كل ثقة ، وهاهو يخاطب أحد أبنائه عن محصول التوتة المبارك :

« كل المواسم يبعزق منها ، يابنى ، إلا موسم التوتة . فغلتها مبروكة ، تبقى كاملة إلى أن تباع فيقبض ثمنها دفعة واحدة . ناهيك عن غلالها العديدة . التوتة ، يابنى ، هى حياتنا ، يجوز لك أن تفرط بكل شىء إلا بالتوتات. التوت بين الارزاق كعمود البيت بالنسبة إلى السقف ، إذا سقط ، سقط السقف كله . والعيلة بدون توت كالبيت بدون مؤن . نقدر أن نعيش بدون كرم وتين ، حتى وبدون زيتون ، ولكن كيف تنزل إلى بيروت إذا لم تبع الشرانق ؟ »

* * *

يدخل موسم القز بصمت ووقار ، وهيبة وجلال ، كأنه صلاة سرية فى المعابد الخفية . هو أولا طبق واحد ، تغلى عليه الدويدات المتحررة من سجونها الصغيرة ، والمرتعشة أبداً كأنها حركة الحياة النابضة باستمرار لاتعرف الكلل ولا الراحة . ثم يتجزأ الطبق إلى أطباق ، فيتضاعف كل يوم إلى أن يملأ الأمكنة المعدة لنموه المبارك .

مشاريع بناء الخصاص وإقامة السدد وإخلاء البيوت القديمة لإسكان الضيوف الحريرية قائمة على قدم وساق . الطباق والركائز وحزم القصب والقشر تخرج من مخابئها . الخصاص تظهر هنا وهناك بين ساعة وساعة حتى يظن المرء انه فى مدينة سينمائية . والصغار يهرجون ويمرحون فى قصور القش والقصب الجديدة متوسلين إلى الشيوخ والعجائز أن يسمحوا لهم بالنوم معهم فى الخصاص . وبعد أسابيع ثلاثة يصير موسم القز فى عز

شغله ، والعيلة مجندة كلها للعمل : الرجال يمشقون الورق من الأمكنة البعيدة ، والنساء يجردن الورق عن القضبان ويقدمنها للدويدات الملتهمة باستمرار ، والأولاد يقشرون القضبان ويرزمون القشر والقضبان العارية حزماً حزماً .

وفى وقت كهذا تصبح زيارات الفتيان غير نادرة .

ـــ « يا خليل ! بحياتك ! هذا المقص ، هات لى غمر ورق من وراء البيت ، طوّل أبى وأمى ، والقزات جاعت ، ولا أقدر أن أترك أخى الصغير »

يعلق خليل ساكته على التوتة . ألف خدمة مثل هذه الخدمة ! يسرع بلمحة بصر ويأتى بغمر الورق . .

ـــ « فتقول وردة : « أبهذه السرعة ؟ تسلم يداك يا بطل ! » ثم ترمقه بنظرة فيها كثير من الأسئلة والمعانى .

ـــ حضرتك كنت تمشقين السنة الماضية من حد بيتنا أحياناً ، لم أرك هذا الموسم ؟ ! . . .

ـــ « مشقت من قرب بيت عمى هذه السنة ! كنت دائماً مستعجلة والمحل قريب »

ـــ « أصدفة أم قصداً ؟ هذا الذى يهمنى ؟ . . . »

ـــ « من يعلم ! كل شىء يجوز ! . . .

كيف كانت سهرتكم ليلة الأحد ؟ ! . . . »

فانكمد خليل وقال :

ـــ « أردة رجل يعنى ! هناك لى صديق ! . . . »

ـــ « فليكن لك أصدقاء ! أن أسألك عن السهرة لتتسلى ! . . »

ـــ « ها أمك آتية سنتكلم مرة أخرى ، مستعد للمساعدة إذا مشقت من قرب بيتنا غداً ! . . . »

* * *

والصيف ملك الفصول بمواسمه الجذابة ! فان تباهى الربيع بجماله ونضارته وأزهاره بقى الصيف صامتاً وفسح المجال لسنابله المثقلة ، وعناقيده المشقرة ، وتيناته المعسلة أن تعبر عن كرمه وسخائه .

وكم تقول الدوالى المخيمة للربيع المشتاق : « لوحكيت لك بعض أسرارى لطلبت من الطبيعة أن تمزجك بالصيف لتستمتع بأبهى مشاهد الحياة وألذها !

« أتذكر « تلك » التى مرت مرة فى حقلك وجنت بعض أزهارك وانصرفت مسرعة بينما كنت تناديها كى تشم أزهارك وتعطرها ؟ »

ـــ « وبعد » ؟ قال الربيع بحرقة !

ـــ « إنها كانت ضيفتى طيلة أصيل أمس ! »

ـــ « وحدها ؟

ـــ « لاتكن حشريا . إذا كانت لك بعض الازهار المختبئة فى أفياء الصخور من الشمس اللاهبة ، فقدمها إلى قرب الطريق ! سوف تمر فى حقلك بعد أيام وقد يكون لأزهارك الحظ أن تشمها ! »

قريتى

بين الأمس واليوم(١)

هذه قريتى الصغيرة ،
متربعة على تلةٍ صخرية ، ناشفة ،
تشرف على بحر بيروت من علو مئات خمس من الأمتار ، وتهفو إلى صنين فتلامسه بشوقها وطموحها .
تتأمل فى حاضرها المريض ، الجامد ، فلا تدرك سر جموده ،
وترجع إلى ماضيها القريب فتحار وتدمع !
كانت إلى الأمس القريب ، إلى ثلاثين سنة ،
ترقص على هذه الآكام الطلقة
رقص عروس نشوى بحبها وبنظرات حبيبها !
فشيعت أفراحها ومسراتها أحزان الحرب الكبرى ،
ثم انتابتها أمراض صامتة ، هى ماتزال تنهك حياتها وتلاشيها ،
كأنها أنواع من السل الاجتماعى المجهول !
بالأمس كانت بيوتها تربو على الخمسين بعد المائة ،
وسكانها على المئات السبع ،
تغلى الحياة فى مناطقها دورة حيوية دائمة ،

---

(١) كتبت فى ربيع ١٩٤١ ، فى كرم توفيق خطار حيث تخفى المؤلف أياما فى سقيفة ذلك الكرم .

كانت تحب سكانها حب الأم أطفالها ،

فتوزع عليهم أعمالهم توزيعاً عادلا فى كل الميادين والحقول :

يتفرق الفلاحون بكرة بين بساتين التوت والكروم المجاورة ،

يغدو المكارون محمّلين منتوجات القرية ومحاصيلها إلى المناطق البعيدة ،

أما الأنوال فيتناوبها أفراد العيلة حتى لاتقف موسيقاها الصناعية التى لاتزعج الاطفال فى نومهم !

الأم لاتترك نولها إلا لترضع طفلها المسطح على « طراحة » بالقرب منها ، أو لتهىء الغذاء للعيلة النشيطة !

أما الفتاة وهى فى سهرة مع خطيبها ، فلا توقف المكوك ، بين آونة وأخرى ، إلا لتغير الخيط أو لتستفهم بابتسامة طاهرة ، عن كلمة لم تسمعها جيداً .

كانت قريتى جمهورية ديموقراطية نشيطة :

كل يساهم فى العمل ليستحق خبزه نقياً ، طاهراً .

الأولاد ، بعد المدرسة يرعون المواشى فى الحقول المجاورة ،

ويفتشون فى مخابىء الصخور عن الخشيش الأخضر ليوفروا الأعلاف اليابسة لأيام الشتاء الباردة .

حتى العجائز وجدن رفيقاً خفيفاً ، لطيفاً ، يرقص فى الشتاء حول الموقد ، حيث يأخذ قسطه من الدفء ،

ويطل فى الربيع إلى أنوار الشمس المنعشة ، فيجلس معهن تارة على العتبة ، وآناً فى « المقصل »(١) الأخضر ،

---

(١) « المقصل » : حديقة صغيرة تزرع فيها البقول لتؤكل أيام الصيام ، وكثيراً ماتجلس العجائز فى هذه الحديقة ومعهن رغيف من الخبز المرقوق حتى إذا جعن يتنقلن فى المقصل ويختضرن كل أنواع البقول

أما فى الصيف فيحضر الاجتماعات العجائزية العديدة ، حيث تدور الانتقادات اللاذعة لجيل الفتيات الطالع . ومحصول المغزل السنوى ليس نحيفاً كقامته ، بل عثمانيات خمس ، تضيفها العجوز الحكيمة إلى مجموعة القرش الأبيض لليوم الأسود .

قريتى بالأمس مواسم غلال سخية ، ومواسم مسرات متنوعة ،

قريتى بالأمس معاصر شتوية يجرى فيها الزيت ودبس الخرّوب كأنها ينابيع من الكوثر الأخضر والأشقر ،

ومعاصر فى الصيف كأنها سواق عبقرية ذهبية يلذ طعمها للشاربين !

قريتى بالأمس :

أكوام الزيتون الأخضر والأسود

وأكوام الشرانق البيضاء والصفراء ،

أكوام الحبوب الكثيرة

وأكوام العنب المذهب ؛

أكوام من عقود التبغ

وأكوام من أطباق التين المسطح ؛

قريتى بالأمس أكوام من السعادة ،

ومسارح للنشاط والحب والجمال !

فأين قرية الأمس من

قرية اليوم !

قريتى اليوم حسرات تتصاعد من القلوب ، وحسرات تظهر ملامحها على وجوه الأرض والأشجار !

قريتى اليوم جمود يشبه الذهول !

سكانها مشوهون فى تكوينهم الاجتماعى ، فلا تجد العناصر التى تكمل المتحد. فالقرية مؤلفة بأكثريتها الساحقة من شيوخ وعجائز وأولاد وصبايا .

والدورة الاجتماعية الكاملة : ضمن العيلة أولا ، وبالتالى ضمن القرية ، هى متقطعة .

الآباء والأمهات لايجدون أبناءهم ، والأولاد لايجدون آباءهم وأمهاتهم.

العجائز يفتشن عن بناتهن المتزوجات فلا يجدن إلا الأحفاد ،

والفتيات يتنزهن مساء على دروب القرية فلا يتمسين إلا بالأولاد والشيوخ!

قريتى هدمتها بالأمس جيوش البرابرة وأماتت أهلها جوعاً وعرياً وشنقاً.

وقريتى يشرد أهلها اليوم أناس مجرمون ،

يقتلون وفى أكفهم القفافيز ، فيلطخ ضميركم ولا تلطخ أيديهم !

قريتى اليوم عجائز وشيوخ يدمعون كلما نظروا إلى البحر ،

ما أقسى الإنسان الذى يدمع الشيوخ والعجائز !

قريتى اليوم أولاد إذا سمعوا : « أبى ، أمى » وقفوا حائرين ، تنتابهم عضات خفية ، مبهمة ، لايدركون معانيها ، ولكنهم يشعرون بها ! وإذا رأوا أما تضم ولدها أو تقدم له شيئاً بحنو واهتمام أداروا بوجوههم متأملين ، حالمين باليوم الذى يتمتعون فيه بالعواطف الأبوية ، وقبلات الأم الحارة !

قريتى اليوم :

فئة أسيرة ، معتقلة ، تعيش منتظرة ، وتتلاشى متفككة ،

وفئة منفية ، مبعدة ، مبعثرة فى مجاهل العالم وأقاصيه ، تعيش مشناقة ، متأملة ، آملة ؛ وتفنى ، بأكثريتها ، فى أشواقها وآلامها وآمالها !

فمن له أذنان فليسمع ، وضمير فليشعر ، وأعصاب متينة فلينزل إلى ميدان العمل والاصلاح .

ستظهر قريباً

أفاعي السقوف

قصـــة قومية

بقلم أسد الأشقر

القصة القومية الاصلاحية التي تبين أعمال التخريب الاستعماري في لبنان وسورية خلال جيل كامل ،

درس واف للتفكك العائلي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي في لبنان ، بعد الحرب الكبرى ،

درس واقعي لكارثة المهاجرة اللبنانية ـ السورية.

أفاعي السقوف

هي عرض لحياة شعب في خمس وعشرين سنة

معابد الريف

قصة ريفية لبنانية تعطي صورة واقعية عن حياة القرية اللبنانية في الحرب الكبرى الماضية .

تأليف : أسد الأشقر

DATE DUE

الأشقر، اسد
من صميم لبنان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038253

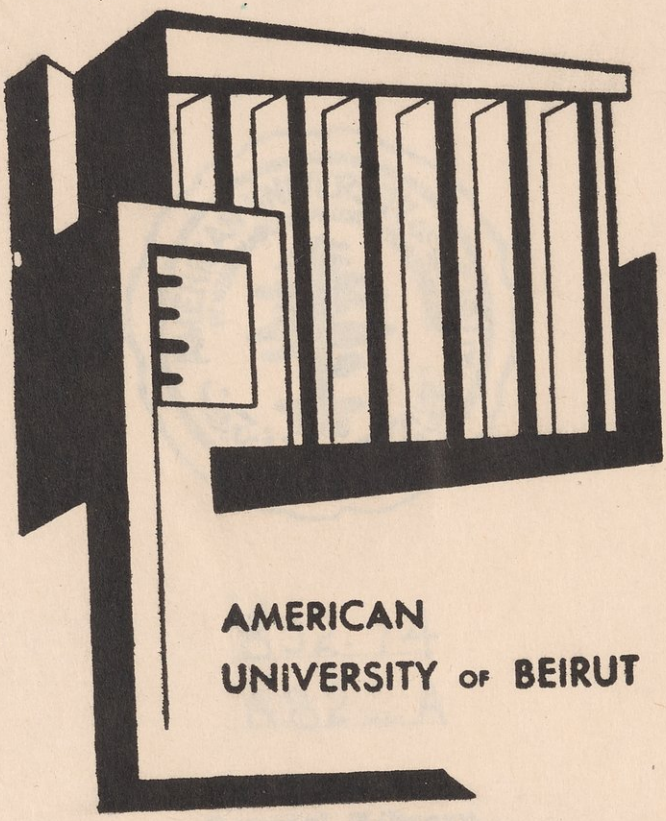

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.74
A827mA